بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الإسلامي العلمائي
Olama Islamic Council
إعـــــداد : شـــعـبـة الـقـلـم

حواريّة تسلّط الأضواء على عقيدة التوسُّل لتعالجها معالجة علميّة

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م

إعـــــــــداد: شـعـبـة الـقـلـم
المراجعة اللغويّة: الشيخ حسين الطويل
تصميم وإخراج: مـحسـن الـخبـاز

الفهرس

المقدّمة..... ٩

١- في انتظار ربّ الأسرة ١١

٢- بعد وجبة العشاء..... ١٥

٣- في مضمار المشي..... ١٧

٤- السبب والوسيلة ٢١

٥- نظام العلل..... ٢٥

٦- القرآن الشاهد..... ٢٧

٧- الأحاديث الناطقة ٣١

٨- التوسل عقيدة إسلاميّة ٣٣

٩- من سجلات التاريخ..... ٣٧

١٠- على ضفاف التوسُّل..... ٣٩

١١- محادثة أرواح الموتى..... ٤٣

١٢- الحياة الخالدة..... ٤٧

١٣- إشراقة فجر الحقيقة ٥١

١٤- فلسفة التوسل..... ٥٥

١٥ - القصيدة ٥٨

المقدّمة

يُمثِّل فكر الإسلام وثقافته الغنى الكبير لكلّ مَن يطمح في الوصول إلى المستويات الأعلى من العلم والمعرفة، كما تُمثِّل الرؤية الإسلاميّة المنبع الأصيل لكلّ مَن يريد أنْ يسمو بروحه، ويرتقي بفكره في آفاق الروح والعقل، بل وتخلق هذه الرؤية من الفرد المسلم إنساناً قادرًا على العطاء في شتى ميادين الحياة.

ونحن نجد الحاجة اليوم متزايدة لإطلالة أخرى على هذه الثقافة من منابعها الأصيلة ولكن بحلّة جديدة تتعاطى مع واقع الحياة، وتتناغم مع طبيعة التطوّر العلميّ والثقافي الذي يفرض الحاجة إلى تقديم الثقافة الدينيّة بصورة متجدّدة قادرة على أنْ تستقطب مختلف ألوان الثقافة، ويتعامل معها الجيل الجديد بالنحو الذي تخلق فيه مناخات متجدِّدة للتعرّف على منهل عطائها الأصيل.

وعلى هذا الأساس بزغت (سلسة: من آفاق المعرفة الإسلاميّة) التي تطمح، وتتطلع إلى أنْ تُقدِّم الرؤى الأصيلة بلغة عصريّة سهلة وسلسة، لتحافظ على أصالة الرؤية، والمنهج، والدّقة، والعلميّة في الطرح والتجدّد، والتنوّع في الأساليب، لتسهم وبشكل فاعل في خلق آفاق رؤية إسلاميّة متكاملة في الواقع الإسلاميّ، ولتشدّ من حلقات التقارب بين المسلمين بمختلف مذاهبهم، وأطيافهم إلى ما يعزّز مناخات التآلف، والانسجام في داخل الأمّة الإسلاميّة، فكان من أشعتها حواريّة (التوسل دين وإيمان) التي حملت بين جناحيها، بل وأخذت على عاتقها التحليق بالقارئ نحو عالم الحقيقة لتكتشف معه أنّ (عقيدة التوسُّل) ما هي إلا عقيدة إسلاميّة يجذِّرها القرآن الكريم من وحي عطائه وآلائه، وتسقيها السنّة الشريفة وتغذيها من أجل إيمان راسخ، ومبدأ يعبِّد الطريق نحو هدف السماء السمح بكلّ جلاء وتتناغم مع العقل والمنطق اللذَين يأخذان بيد الإنسان الواعي إلى سعادة الدارين، وبلوغ الهدف والغاية إذ (**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**). الذاريات:٥٦

نسأل الله العليّ القدير أنْ نكون قد وفِّقنا في هذا المسعى الذي نخطو أول خطوات سلّمه من خلال هذه الحلقة الأولى، آملين أنْ نتواصل معكم في حلقات متجدّدة متتالية، لنقدّم من خلالها ما ينفع، ويخدم أبناء الأمة، ويعزِّز انتماءهم لدينهم وعقيدتهم، ويجيب على مختلف التساؤلات والاستفسارات.

شاكرين كلّ مَن ساهم في إنجاح هذا العمل مِن كاتب، ومراجع، ومدقِّق، سائلين الله العليّ القدير أنْ يتقبّل منّا ومنهم هذا العمل المبارك، إنّه سميع مجيب.

المجلس الإسلاميّ العلمائيّ
٢٠ جمادى الثانية ١٤٢٨هـ
٢٠٠٧/٧/٦م

التوسُّل دين وإيمان

(١)

في انتظار ربّ الأسرة

ما أجمل الحياة عندما تتناغم، وتنسجم فيها الأرواح، لتبدو كحلقات متصلة ببعضها البعض، فتشدّ كلّ واحدة منها الأخرى بالمودّة والرحمة، كما ما أروع قلوب الأسر المتآلفة التي تتعاطى فيما بينها الاهتمام، وتسأل بجدّ عن أفرادها لتبقى على خطّ تماس الحبّ والودّ الذي يظلّل حركتها في هذه الدنيا لتصل إلى غايتها المنشودة، وكان من ضمن هذه العوائل المؤمنة في البحرين ذات الانسجام والوئام هي عائلة الحاج يوسف.

❖ ❖ ❖ ❖

لقد انتظرت عائلة الحاج يوسف رجوع ربّ الأسرة من المسجد لتتناول معه وجبة العشاء كعادتها، ولكنّها وجدته قد تأخر على غير عادته، فقالت فاطمة: لقد تأخر أبي كثيرًا، أنا جائعة يا أماه.

فردّت الأم وهي تعدّ مائدة العشاء: صبرًا يا فاطمة، اشغلي نفسك بأمر حتى يصل والدك.

ولما صمتت فاطمة بدأت الأمّ تُحدّث نفسها: لقد تأخر يوسف كثيرًا هذه الليلة على غير عادته.

ثم وجّهت الأم خطابها لابنها أحمد: أحمد لقد تأخر والدك، فما السبب يا ترى؟

أحمد: أَوَ نسيتما أنّ هذه ليلة الأربعاء، وهي ليلة دعاء التوسّل، وعادة ما يتأخر فيها والدي من أجل الدعاء، أما أنا فقد خرجتُ من المسجد عندما شرع المصلّون في قراءة دعاء التوسل، وكان أبي معهم، ولكن هل يُعقل أنّهم لم ينتهوا بعد من قراءة الدعاء؟

قالت الأم بتوجّس: نعم - **يا أحمد**- نعم.

عزيزي **أحمد** انظر ماذا تفعل أختك فاطمة؟، فلقد تركتني والجوع غالب على أمرها، إنّها قد سئمت من طول انتظار والدها.

أحمد: حسنًا - يا أمّي-، ولكنْ ليست فاطمة لوحدها قد بدا عليها الجوع، بل أنا كذلك.

❖ ❖ ❖ ❖

ذهب أحمد إلى غرفة أخته فاطمة، فطرق الباب مستأذنًا بالدخول؛ فأذنت له فاطمة وهي تقلِّب أوراقًا بين يديها، فبادرها **أحمد** بالقول: ماذا تفعلين **يا فاطمة؟**

وما هذه القصاصات الورقيّة التي أمامك؟

فاطمة: إنّنا نعد بطاقات التهنئة بمناسبة مولد الزهراء (عليها السلام)، ولسوف نقوم بتوزيعها على

المشاركات في حفل سنّ التكليف مساهمة منّا في تفعيل مثل هذا النشاط المبارك.

أحمد: وما هو حفل التكليف هذا؟

فاطمة: إنّه حفل موحّد على مستوى البحرين للفتيات اللاتي بلغنَ سنّ التكليف، فشرفهن الله سبحانه وتعالى بعبادته، والذي يقيمه المجلس الإسلاميّ العلمائيّ (١) كلّ سنة احتفاءً بهنّ.

أحمد: يا ترى ماذا كتبتِ عليها؟

فناولته إحدى القصاصات وراح يقرأ ما كتب عليها (نهنئكم بمناسبة مولد الزهراء «ع»، و(يا زهراء اشفعي لي عند الله).

أحمد: وقد أبدى شيئًا من عدم الرضا على قسمات وجهه: لا بأس بهذه التهنئة.

فاطمة: وما اعتراضك عليها، ولماذا أراك واجمًا؟

أحمد: وبشيء من الدعابة التي تنطوي وراءها قناعة تكوّنت لديه مؤخرًا: لا، لا اعترض على الصورة، فهي رائعة جدًا، ولكنّني أرى أنّ عبارة التهنئة تكفي، فلا داعي لجملة: (يا فاطمة اشفعي لي عند الله).

فاطمة: ولماذا لا داعي لها؟!

أحمد: إنّ الزهراء (عليها السلام) تريد من الفتاة المسلمة أنْ تكون عفيفة، وتؤدِّي واجباتها الشرعيّة، ولا تريد منها أنْ تطلب الشفاعة بلا عمل.

فاطمة: وقد أبدت تبرمهّا: أولاً: نحن - ولله الحمد- نلتزم بحجابنا، ونؤدِّي واجباتنا الدينيّة كلّها؛ ومع ذلك نطلب الشفاعة منها (عليها السلام)، ونتوسّل بها؛ ولسنا ممّن يطلبون الشفاعة بلا عمل كما تقول.

وثانيًا: وهو الأهم إنّ هذه العبارة ليست من عندي، وإنّما هي عبارة أبي، فإنّ كان لديك اعتراض، فاسأله.

وبينما هما في ذلك إذ سمعا فجأة صوت فتح باب المنزل إذ قد وصل أبوهما الحاج يوسف من المسجد، ودخل بيته ذاكرًا الله تعالى، ومسبِّحًا له بحمده، فهُرع أفراد الأسرة متسابقين إليه، فقال

أحمد: غفر الله لك يا أبي؟

الأب: ولك يغفر الله يا بني.

الزوجة: لقد تأخرت كثيرًا يا أبا أحمد، فما سبب تأخيرك؟

الزوج: أَوَ نسيتم أنّ هذه ليلة الأربعاء، وأنّها ليلة قراءة دعاء التوسّل، وهي حالة إيمانيّة تنتشر بصورة مشرقة، وبشكل واسع في مآتم، ومساجد بلدنا الحبيب؟

---

(١) المجلس الإسلاميّ العلمائيّ هو: مؤسسة دينيّة فاعلة في المجتمع تنطلق من وحي التزامها الدينيّ لتسهم في رفع وترشيد ثقافة ووعي الأمة بما ينسجم ويتوافق مع ما تؤمن به من عقيدة ومنهج إسلاميين، وقد تأسست على سواعد علمائيّة محليّة سنة٢٠٠٤م، في شهر رمضان المبارك ١٤٢٥هـ.

وأنّ بعد الانتهاء من قراءة دعاء التوسل يبدأ إمام جامعنا بالحديث عن بعض المسائل الفقهيّة المتعلقة بصلاة الجماعة؟

الزوجة: نعم.

الزوج: ولهذا طال الوقت بنا في المسجد خاصة وأنّ الليلة بالذات قد أفاض الإمام بالحديث، فتناغم وانسجم معه أكثر المصلين بالأخذ والردّ لأهمية الموضوع الذي طرحه حيث ناقش حالة تكاد تكون ظاهرة في البيئة المسجديّة، وهي ابتعاد بعض المأمومين عن تعقيبات الصلاة من دعاء وغيره بعد أنْ يفرغ إمام الجماعة من صلاته، حيث يتفرق بعض المصلين ليحرموا أنفسهم من تلك الشحنات الإيمانيّة تاركين ثلّة منهم يحيون تلك الحالة الروحيّة.

الزوجة: على كلّ حال: تقبّل الله أعمالكم، سأحضر لكم وجبة العشاء، إذ يبدو عليكَ الجوع أيضًا كما هو بادٍ على أولادك.

فاطمة وقد تقدّمت نحو أبيها وبيدها بطاقة التهنئة، فناولته إيّاها قائلة: أبي، ما رأيك في هذه البطاقة التي سأساهم بها في حفل سنّ التكليف، هذا التكليف الذي شرّفني الله به كباقي الفتيات؟

الأب وبعد أنْ قرأ عبارة البطاقة بصوت منخفض قال: جميلة جدًا يا فاطمة، ولكن من رأيي لو كانت العبارة باللون الأصفر لأصبحت أكثر جمالاً، وأناقة.

فاطمة: تصوّر يا أبي لقد كنتُ محتارة في اختيار اللّون الذي يناسب الخلفيّة، ولكن كعادتك تتدخل في المسألة وتعطي الرأي الصائب أيّها المنقذ.

فقهقه **الأب**، ثم قال: وهل تقبلين بملاحظة أخرى؟

فاطمة: تفضل يا أبي، بل أنا في انتظار ملاحظاتك القيّمة.

الأب: يُفضّل أنْ تُكتب عبارة (عليها السلام) كاملة بدل أنْ نكتفي بوضع حرف (العين) بعد اسم مولاتنا الزهراء، فإنّ عبارة (عليها السلام)، أو (صلى الله عليه وآله وسلم) أمام ذكر النبيّ نوع من الدعاء، وتعظيم لمقام الأنبياء، والأئمة (عليهم السلام)، ثم أليس من العيب أنْ نعظّم أنبياءنا، وأئمتنا باختصار شديد؟

فنحن عندما نريد أنْ نخاطب مسؤولاً صغيرًا، أو شخصًا ذا مكانة في المجتمع، فإنّنا نخجل إذا لم نقدم له عبارات المدح، والثناء بالتفصيل.

أليس أولياء الله تعالى أولى بهذا التكريم من غيرهم؟

فاطمة: يا الله، ما هذه اللفتة الجميلة يا أبي؟ حقًّا إنّنا غافلون عن مثل هذه الأمور التي قد تبدو صغيرة، ولكنّها كبيرة بمعانيها، وبمحتواها.

وما أنْ أتمت فاطمة قولها وإذا بصوت أمّها من وراء طاولة الطعام تناديهم قائلة: العشاء جاهز هيّا، ولنُؤجِّل الحديث إلى ما بعد الأكل.

(٢)

بعد وجبة العشاء

إنّ اجتماع الأسرة وبالخصوص حول مائدة الطعام ليضفي على جوّها روح السعادة، ولهذا كانت عائلة الحاج يوسف تصرّ على التلاقي والالتفاف حول بعضها على المائدة، وبما أنّ للمائدة أخلاقها وآدابها الخاصة، فإنّها عادة ما ترجئ الخوض في الأحاديث، وتناول وجهات النظر إلى ما بعد الانتهاء من تناولها الطعام.

وما أنْ رفعوا المائدة حتى بادرت **فاطمة** بالقول: تصوّر يا أبي أنّ **أحمد** معترض على عبارة البطاقة، ويقول: لا داعي لطلب الشفاعة من الزهراء (عليها السلام)!!

فردّ **أحمد** بنوع من التردّد، والحيرة في الجواب: كنت أمزح معها - يا أبي-، مع أنّني قد بيّنت لها أنّ الزهراء (عليها السلام) تريد منّا عملاً صالحًا لا أنْ نتوسل بها من دون أنْ نؤدّي الأحكام الشرعيّة التي فرضها الله تعالى علينا.

الزوجة: إنّ الإنسان المؤمن يعرف جيدًا أنّه لن ينال الشفاعة من النبيّ (صلى الله عليه وآله)، وأهل بيته (عليهم السلام) ما لم يكن مطيعًا لأوامر الله سبحانه وتعالى وإنْ توسل بهم صباحًا ومساءً.

فما هو رأيك يا **أبا أحمد** فيما أقول؟

الزوج: كلام صحيح لا شكّ فيه، ويكفي دليلاً على ما تقولين هو قول الإمام الصادق (عليه السلام): **(شفاعتنا لا تنال مستخفًا بصلاته)**(٢).

فاطمة: أَسمعت يا أحمد، ولا داعي لذكر انتقاد لا أساس له من الصحة.

أحمد: هذا رأيي، ولكِ رأيك يا أختي العزيزة.

الأب وبصوت مهموس يخاطب ابنه أحمد: أريد أنْ أتحدّث معك بعد العشاء لوحدنا؟

أحمد: إنْ شاء الله تعالى يا أبي، فأنا تحت أمرك، فلك الأمر، وعليَّ الطاعة.

الأب: بارك الله فيك يا بنيّ.

فقالت **فاطمة** وبشيء من الدعابة: أرى أنّ الأسرار على قدم وساق بين الوالد والولد.

ثم التفتت إلى أمها قائلة: دعيني أدلو لكِ بسرٍّ، وراحت توشوش في أذن أمها، فابتسم الجميع لهذه اللفتة الذكية، فقال الأب: يا ابنتي لم يكن هناك سرّ، وإنّما وددت أنْ آخذ موعدًا من أخيك فحسب، فلا جعل الله بيننا أسرارًا.

ثم تمتم الأب بكلمات الحمد، والشكر قائلاً: الحمد لله على نعمه؛ **(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ**

---

(٢) بحار الأنوار ٧٩/٢٢٧، العلامة المجلسي، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت- لبنان.

إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)(٣).

أحمد: لقد أكلتُ كثيرًا.

الأب: بني التخمة رأس كلّ داء، فما رأيك إذًا أنْ نُمارس رياضة المشي على شاطئ البحر بعضًا من الوقت، فلعلّ الطعام الشهي الذي طهته يد أمّك يُهضم قليلاً؟

أحمد: إنّها فكرة جيّدة، سأغيِّر ملابسي، وآتي فورًا، ولكن أيّ شاطئ سنرتاده؟

الأب: معك حقّ يا بنيّ بسؤالك هذا، فلم تبقَ شواطئ عامة في بلدنا، فمعظمها قد أصبح ملكًا خاصًا، وعلى ما أعتقد أنّ شاطئ قريتنا لم تمتد له يد التخصيص بعد، إذ قد جعلوا فيه مضمار مشي، فهيا أسرع قبل أنْ يحوِّلوه هو الآخر إلى ملك خاص.

فقهقه الجميع، وقال **أحمد:** سأذهب حالاً قبل فوات الأوان، وعندها لن ينفع الندم.

الأب: وأنا بانتظارك.

---

(٣) الأحقاف: ١٥.

(٣)

في مضمار المشي

لاشكّ أنّ حالة الاستجمام، والأخذ بسبل الترويح عن النفس، وممارسة ما من شأنه أنْ يساعد على بقاء صحة الإنسان في حالتها الطبيعيّة أمر يرشد إليه العقل، إذ (**العقل السليم في الجسم السليم**)، ويؤكد عليه الشرع ولكن بما أنّ الشواطئ صار يرتادها مختلف شرائح المجتمع بتعدد ثقافتها، ومنطلقاتها، فقد انطلق **أحمد** مع أبيه وهما آخذان في اعتبارهما ما قد يواجههما من مواقف متعددة قد تنسجم مع مبادئهما، والتزامهما، وأخرى لا تتوافق مع ما يؤمنان به، ومن هنا قد أخذا في اعتبارهما، بل وتهيآ لمواجهة ما قد يعترض طريقهما بالحكمة، والموعظة الحسنة.

كما قد ارتديا لباسًا محتشمًا وفق الضوابط الشرعيّة ويتماشى والرياضة التي خرجا من أجلها، وعند بداية الانطلاق على خطوط المضمار قال **أحمد**: أبي بينما كنّا في البيت قد قلت لي بأنّك تريد التحدّث معي في موضوع ما؟، فما هو يا ترى؟

الأب: لقد لاحظت عليك لمدة أسابيع أنّه في كلّ أربعاء عندما يشرع المصلّون بقراءة دعاء التوسل، فإنّك ما أنْ تنتهي الصلاة، فإنّك تخرج من المسجد مباشرة من دون مشاركتنا الدعاء، فهل ملاحظتي صحيحة، أم لا؟

أحمد وبنوع من الخجل: نعم يا أبِي، إنّ كلامك صحيح، بل وأصبت كبد الحقيقة.

الأب: هل لي أنْ أعرف السبب - إنْ أمكن ذلك-؟

ولا أجبرك على الإفصاح به، فأنت شاب مهذّب عاقل، وأعرفك جيدًا.

ولا تترك عملاً إلا لسبب ما، وهذا السبب لا أدري لماذا يتكرر ليلة الأربعاء بالذات؟ مع أنّك من الحريصين على المشاركة في قراءة الأدعية.

أحمد: أبي إنّني ومنذ فترة تدور في ذهني بعض الأسئلة حول قضيّة التوسّل، وليومي هذا لم أجد إجابات شافية وافية لتلك الأسئلة، ممّا أفضت بي مثل هذه الشكوك إلى الإحجام، وإلى عدم المشاركة في تلك الأيام المنصرمة التي تذكرها، بل وعن بعض السلوكيّات الأخرى التي تستند إلى عقيدة التوسل.

الأب: وهل هناك سبب محدّد جعلك تصل إلى ما وصلت إليه؟

أحمد: نعم، فلقد قرأت كتيِّبًا من إحدى رفوف المكتبات الصغيرة المركونة في بعض المستشفيات عندما كنت أنتظر دوري للدخول على الطبيب، حيث كان يتناول ذلك الكُتيِّب حقيقة معنى التوسل، وأهم الآثار التي تترتب على مَن يعتقد ويعمل به، ومِن أعظمها الشرك باللّه تعالى.

الأب: يبدو أنّ المسألة بلغت بك إلى حدّ الاقتناع بما دوِّن في ذلك الكتيِّب؟

أحمد: لا، لا أسميه اقتناعًا، بل هي تساؤلات وشكوك قد ثارت في ذهني منذ زمن، وزاد الطين بلّة ما هو موجود في ذلك الكتيِّب، وعندما لم أجد إجابة على تلك التساؤلات، فقد وجدتني هذه الأيام غير متفاعل مع ذلك الدعاء، أقصد دعاء التوسّل.

الأب: سوف أثبت لك - يا بنيّ- بأنّ كلّ ما قرأتَه، وما سمعته لا أساس له من الصحة لا عقلاً، ولا شرعًا، وسأستند - في ذلك - إلى الأدلة القرآنيّة، والروائيّة، والتاريخيّة إذا ما أحببت، لإثبات صحة عقيدة التوسّل، وأنّها نابعة من صميم عقيدة توحيد الله تعالى.

أحمد: لا شكّ يا أبي أريد الحلّ، والدليل لأخرج من هذه الزوبعة الفكريّة، فأدلِ بدلوك، وأخرجني من شرنقتي، فأنا أعيش هذه الأيام دوّامة من الصراع الفكريّ حول هذه العقيدة.

الأب: حسنًا.

ثم صمت قليلاً، وواصل بعدها حديثه بنبرة العتاب قائلاً: إنّنا نؤمن بأنّ (العتاب حياة المودّة)(٤) كما يقول أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولذا فإنّ لي عليك عتابًا يا أحمد.

أحمد: ما هو يا أبي؟

الأب: قلتُ لك مرارًا: إنْ وقع في نفسك شيء من الشك، أو الشبهة حول عقيدة ما، فعليك بالتحرّك مباشرة للتحرّي عن المسألة، والبحث عن أدلتها؛ لأنّ عقيدة مذهب أهل البيت (عليهم السلام) قائمة على الدليل، والبرهان، والقناعة الواعية المستندة للقرآن الكريم، والسنّة الشريفة، وأحكام العقل القطعيّة، وكلّ ما يخالف القرآن الكريم، وسنّة النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله)، وحكم العقل القطعيّ يجب أنْ نضرب به عرض الجدار، ولا نأخذ به، فنحن أبناء الدليل حيث ما مال نميل.

فالشبهات التي تعرض على النفس لها أثر إيجابي في تحريك المسلم، وانبعاثه نحو معرفة الحقيقة، ولكن إذا لم يتحرك الإنسان، وترك تلك الشبهات تختلج في نفسه لتُفرِّخ، فإنّها ستستفحل، وستستحكِم في العقل، والقلب، وبعد ذلك يصعب عليه التخلّص منها.

فانظر - يا أحمد- إلى اعتراضك الذي بَدَرَ منك على عبارة (يا زهراء اشفعي لي في الجنة) - ولو من باب المزاح، ومحاولة بيان أنّ هذا الأمر مجرد وجهة نظر- إنّ كلّ ذلك يدلّ على أنّ الشبهة مهما كانت خافية في النفس، فلابدّ أنْ تظهر آثارها على مواقف الإنسان، وسلوكه، أو على الأقل في زلات لسانه، فأمير المؤمنين الإمام عليّ (عليه السلام) يقول: (ما أضمر أحد شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه)(٥).

أتظنُ - يا أحمد- أنّ امتناعك عن المجيء معنا يوم الجمعة الماضي لزيارة مرقد العالم الرباني

---

(٤) عيون الحكم والمواعظ ٣٩، علي بن محمد الليثي الواسطيّ، الطبعة الأولى، دار الحديث.

(٥) بحار الأنوار٧٢/٢٠٤، العلامة المجلسي، الطبعة الثالثة المصححة، سنة الطبع١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان.

السيد هاشم البحراني (قدّس الله نفسه الزكيّة)(٦) في قرية توبلي كان اعتباطًا؟

أحمد: لا يا أبي، فقد كنت مشغولاً بأمر ما لا يحتمل التأجيل.

الأب: لو كان ما تقوله صحيحًا، فلماذا خرجت إذًا مع عمّك حسن عندما اتصل بك، وذهبت معه إلى السوق؟

أحمد: لقد كان ذلك موعدًا مسبقًا مع عمي، ولم أرد خلف موعدي معه كما ربيتنا على ذلك، ولأنّ وعد الحرّ دين.

الأب: حسنًا، ولكن كيف تبرّر لي سبب امتعاضك من أختك **فاطمة** عندما رجعنا من مرقد السيد هاشم، وهي تتمتم داعيةً الله أنْ يفرِّج كرب المؤمنين بجاه هذا العالم الجليل.

أحمد: أعترف بأنّني قد أخطأت، وبدل أنْ أسعى للبحث، والتحرِّي عن مصداقيّة تلك الشبهات التي قرأتها، فقد تعاملت معها وكأنّها حقائق، ومسلَّمات، ورتّبْتُ عليها أثرًا عمليًّا بالانقطاع عن دعاء التوسل، والممارسات الأخرى التي تتضمن نحوًا من التوسّل، ولكنّني حاولت مرارًا أنْ ألتقي بإمام جامعنا للحديث معه حول مسألة التوسّل، ولكنّني كنتُ أخجل، وأستحي منه.

الأب: وأين ذهبتُ أنا يا **أحمد**؟

فأنا أب ومن واجبي أنْ أغرس في نفوس أبنائي العقيدة الصالحة والصحيحة، وأنْ أتكفل بالإجابة عمّا يدور في أذهانهم من أسئلة وإشكالات، فإنْ عرفتُ الإجابة عليها فبِها ونِعمتْ، وإنْ لم أتمكّن من ذلك سألتُ علماء الدِّين، وحماة العقيدة، ثم أليس الله تعالى يقول في كتابه: **(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)**(٧)؟

وراح يتابع حديثه قائلاً: واعلم يا بنيّ أنّ العلماء(٨) يرحّبون بكلّ سؤال يوجّه إليهم، فلا يكن عندك خجل، أو وجل، أو خوف مِن سؤالهم حول كلّ ما تحتاج إليه من أمور دينك، ودنياك.

إنّني سأبدأ بالحديث معك حول عقيدة التوسل، وسأجيب على الشبهات التي في ذهنك، ولكنْ إيّاك أنْ تسكت عن رأيّ لم تقتنع به خجلاً مني، فكن على يقين بأنّك ما لم تكن صريحًا معي في الحوار، فلن تصل إلى النتائج الحقيقيّة.

---

(٦) هو السيد هاشم بن سليمان بن إسماعيل بن عبد الجواد بن علي بن سليمان الحسينيّ البحرانيّ.

يلقّب بـ(التوبلاني) نسبة إلى (توبلي) أحد أعمال البحرين، وتحديدًا في قرية من قرى (توبلي) تسمى (كَتْكَتان).

ولقد كان يتمتع بمكانة اجتماعيّة مرموقة في بلاده، وله دور كبير في تنظيم الأمور الاجتماعيّة، وكان يحظى باحترام سائر الطبقات، وفوق كلّ هذا قد بلغ غاية قصوى في المنزلة العلميّة حيث ذاع صيته في بلده البحرين، وفي بعض البلدان الأخرى.

وقد توفي في قرية (النعيم) سنة١١٠٧هـ، ونقل جثمانه الشريف إلى (توبلي)، ودفن في مقبرة من مقابرها، وغدا قبره اليوم مزارًا معظّمًا معروفًا. من مقدمة البرهان في تفسير القرآن١/٦١-٦٣، السيد هاشم الحسيني البحراني، سنة الطبع ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

(٧) النحل:٤٣.

(٨) عرفت البحرين بتاريخها العلميّ، وحوزاتها، وعلمائها الكبار الذي كان لهم الدور الفاعل ولازال في تربية الناس وفق منهج السماء، وإرشادهم وتوجيههم نحو طريق الله سبحانه وتعالى.

أحمد: بالطبع يا أبي، فلم تعهدني في يوم من الأيام لجوجًا عنيدًا في حواري.
الأب: صدقت يا أحمد، وهذا عهدي بك، ولكنّني أحببت تنبيهك ليس إلا، **(فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)**(٩).
وهنا راح يكحّ، فواصل حديثه مبتسمًا: إنّ علامات الكِبر مشينة!
فبادله **أحمد** بابتسامة، وقال: أبي يبدو أنّك قد تعبت من المشي، فهلاّ رجعنا إلى المنزل.

(٩) الذاريات:٥٥.

(٤)

السبب والوسيلة

لاشكّ أنّ فتح باب النقاش بروح الحوار القرآنيّ يجني من خلاله أطراف الحوار مكاسب جمّة خاصة عندما تكون الأطراف تبتغي الوصول إلى الحقيقة مهما كانت، وأنّى وجدت، وهذا هو نفس ما جرى بين أحمد وأبيه حيث قال **الأب** - وهما يسيران في طريق العودة إلى البيت -: هل أنت مستعد للحديث عن موضوع التوسل يا **أحمد**؟

أحمد: على بركة الله نبدأ.

الأب: هل تعلم - يا **أحمد**- أنّ من أساسيات أيِّ نقاش إذا كان حول موضوع معيّن أنْ نبدأ بالحديث عن معنى ذلك الموضوع، لأنّنا يجب أولاً أنْ نحدد دائرة النقاش حتى نتمكن من الوصول إلى النتائج بيسر، ولذا قيل قديماً في مَثَلٍ معروف: (ثبِّتْ العرش، ثم انقش).

أحمد: إذًا - يا أبي- بيِّن لي معنى التوسل، لأكون على وضوح من الأمر.

الأب: إنّ التوسل هو: عبارة عن الاستفادة من الوسائط الموجودة بينك وبين الغاية والغرض الذي تريد الوصول إليه، وهذه الوسائط تُسمى بالوسيلة، والوسيلة إمّا أنْ تكون شيئًا ماديًّا، وإمّا شيئًا معنويًّا.

أحمد: هل يمكن أنْ توضح لي الأمر بأمثلة واقعيّة؟

الأب: بالطبع!

انظر - يا **أحمد**- إنّك إذا أردتَ أنْ تحصل على ثمرة الرطب في منزلك، فماذا تصنع؟

أحمد: أزرع شجرة النخل، وأرعاها حتى تُثمر، وأحصل على الرطب بعدئذٍ.

الأب: هل تستطيع الحصول على الرطب بدون أنْ تقوم بعمليّة الزرع، وشرائطها؟

أحمد: قطعًا لا!!

الأب: إذًا فعمليّة الزرع وسيلة استفدتَ منها للوصول إلى الهدف والغرض المقصود، وهو ثمرة الرطب.

أحمد: كلام جميل.

الأب: ولأنّه كلام جميل، فسأعطيك مثالاً آخر، وهو: لو أردت أنْ تخرج ما في ذهنك من أفكار، وآراء وتبرزها إلى صديقك، أو إلى أيّ شخص آخر، فماذا ستفعل؟

أحمد: إما أنْ أخبره شفهيًّا، أو أكتب له ما في ذهني من آراء مخزونة.

الأب: إذًا لكي تبرز ما في ذهنك، وقلبك من أفكار، ومشاعر للطرف الآخر، فلابدّ وأنْ تستخدم إحدى الوسيلتين: إما اللسان، وإما الكتابة وبدونهما لا يمكن أنْ يعرف أحد بما يدور في نفسك، وذهنك.

أحمد: كلام لا غبار عليه.

الأب: وبما أنّ الكلام لا غبار عليه، فخذ مثالاً ثالثًا أيضًا، وهو: إذا أحسست بالعطش، فحينئذٍ ستبحث عن الماء ليرفع عنك عطشك إذ الماء هنا وسيلة لرفع العطش، فلو بقيت ساعاتٍ ليرتفع عنك العطش لما ارتفع، لأنّك لم تستخدم الوسيلة المناسبة التي جعلها الله تعالى لرفع العطش، وهي الماء.

وخذ مثالاً رابعًا، - وهذا المثال عمليّ اجتماعيّ، ونمارسه كثيرًا في حياتنا-، وهو: عندما تريد الوصول إلى حقّك، ومبتغاك السامي عند شخص ذي مكانة رفيعة في المجتمع ودون الوصول إليه تكمن الصعاب، ولكنّك تعرف أنّ الوصول إليه لا يتحقّق، أو من الصعب تحقيقه إلا إذا طلبت من شخص قريب من صاحب المكانة الرفيعة، أو وجيه عنده أنْ يدلل تلك الصعاب، ويفتح الباب بينك وبينه ليحقِّق لك ما تريد، أليس كذلك؟

أحمد: هو بالضبط - يا أبي-، ولكن ما الذي تريد قوله من وراء ذكر هذه الأمثلة خصوصًا أنّها متعدِّدة الجوانب؟

الأب: أحسنت، فهنا النقطة الأساس.

أردت أنْ أقول لك: إنّه ما من هدف، أو غاية يريد الإنسان أنْ يصل إليها إلا ويجب عليه أنْ يستخدم الوسيلة المناسبة لتحقيق ذلك الهدف، أوَ أتدري لماذا؟

أحمد: لماذا؟

الأب: لأنّ الله سبحانه وتعالى خلق هذا العالم، وهذا الوجود ليسيرا على نظام واحد في كلّ شيء، وهو: نظام الأسباب والوسائل، فلو وضعت يدك على أيِّ أمر لوجدت أنّ لهذا الأمر سببًا، ووسيلة لا يتحقق إلا بها، ويستحيل أنْ يحدث في هذا الوجود شيء من دون أيّ وسيلة، أو سبب.

أحمد: قد لا أتفق معك - يا أبي- حيث إنّ هناك أمثلة كثيرة تُثبت حدوث أشياء في هذا العالم من دون وسيلة، أو سبب.

الأب: مثل ماذا؟

وهل لك أنْ تذكر لي مثالاً واحدًا على الأقل لِمَا تقوله يا ولدي؟

أحمد: نعم، ففي مثال الماء والعطش الذي ذكرتَه قد يرتفع العطش عن الإنسان من دون ماء، أو أيّ وسيلة أخرى.

الأب: وكيف يحصل ذلك؟

أحمد: أنْ أدعو الله تعالى حتى يرفع عني العطش، فيتحقق لي ذلك على نحو المعجزة، ومن دون أيّ سبب، أو وسيلة.

فقهقه **الأب**، وقال: ومَنْ قال لك أنّ ما ذكرته قد يتحقق بدون وسيلة، أو سبب؟، فإنّ الوسيلة التي استخدمتها لتحقيق هذا الغرض هي الدعاء، فأنت قد جعلت الدعاء وسيلة ليرفع بها الله تعالى

عنك العطش بدليل أنّك لو لم تدعُ اللّهَ تعالى لِرفع العطش، ولو لم تسعَ للحصول على الماء، فهل سيرتفع عنك العطش؟

أحمد: كلا يا أبي.

الأب: إذاً أريدك أنْ تفكر جيّدًا في هذه المسألة، ولسوف تجد أنّ حقيقة التوسل تشمل مختلف جوانب الحياة - دنيويّةً كانت، أم أخرويّةً -، فلا تجد أمرًا يسعى الإنسان لتحقيقه إلا ويعتمد في ذلك على سبب، ووسيلة معيّنة.

أحمد: أبي أرى أنّك متعب، فلنكمل الحديث غدًا خاصة وقد شارفنا على الوصول إلى المنزل.

فبقيا صامتين برهة من الزمن حتى وصلا إلى البيت، وقبل أنْ يفترقا للنوم قال **أحمد**: تصبح على خير يا أبي.

الأب: وأنت من أهل الخير يا بنيّ.

❖ ❖ ❖ ❖

منذ أنْ أنهى **أحمد** النقاش مع **أبيه** أخذ يفكِّر في مسألة الوسائل، والأسباب، فما مِن غرض يسعى له إلا ويجد بأنّ تحقيق هذا الغرض يتوقّف على وسيلة يتوسل بها.

بل تعدّى تفكيره إلى التأمّل في الحوادث الكونيّة، فوجد بأنّ المطر وسيلة لنمو الزرع، ودوران الأرض حول نفسها أمام الشمس هي الأخرى وسيلة لحدوث ظاهرة الليل والنهار، والزواج هو الآخر وسيلة للتوالد، والتكاثر، وهكذا.

(٥)

نظام العلل

وفي الليلة التالية واصل أحمد وأبوه النقاش، فبينما هما خارجان من المسجد متوجهين إلى المنزل ابتدأ **أحمد** الحديث قائلاً: شكرًا لك - يا أبي- على المعلومة التي أتحفتني بها الليلة الماضية، وقد اقتنعت تمامًا بأنّ هذا العالم، وهذا الوجود قائم على أساس نظام الأسباب والمسببات، ولكن ما دخل هذا الأمر في موضوعنا، أعني موضوع التوسل بالأنبياء، والأئمة (عليهم السلام)؟

الأب: أردتُ في البداية قبل الدخول في موضوع التوسل بالنبيِّ الأعظم (صلى الله عليه وآله)، وأهل بيته (عليهم السلام) أنْ أثبت لك بأنّ مسألة التوسل مسألة واقعيّة عقليّة يشهد بها العقل الإنسانيّ وفطرته، بل إنّ التوسل نظام يقوم عليه الوجود بأكمله، ولكي نثبت صحة أيّ عقيدة، فإنّنا نستدل – أحيانًا- بالدليل العقليّ، وأحيانًا بالدليل النقليّ - وأقصد بالدليل النقليّ: القرآن، والحديث الشريف-، ولكنْ عندما يتمّ الاستدلال بالدليل العقليّ، والنقليّ معًا، فإنّه سيكون أقوى، وأمتن.

أحمد: لقد أثبتّ لي مسألة التوسّل بالأدلة العقليّة، والواقعيّة، ولكنّ المهم أنْ تثبت هذه المسألة بالأدلة القرآنيّة، والأحاديث الشريفة.

الأب: حتمًا سأثبت لك ذلك.

في البدء لابدّ أنْ تعلم - يا **أحمد**- أنّ للتوسل أنواعًا عديدة وردت بشكل واضح في مصادر ثقافتنا الإسلاميّة سواء القرآن الكريم، أو السنّة النبويّة الشريفة، أو الكتب التاريخيّة عمومًا.

إنّ معنى التوسّل في العقيدة الإسلاميّة هو نفس المعنى الذي ذكرناه بالأمس.

أحمد: إذًا هذا يعني أنّ عقيدة التوسّل هي التمسك بالوسائل التي جعلها الله تعالى لعباده، ويسّرها لهم للوصول إلى الغرض الدنيويّ، أو الأخرويّ الذي يتمنّونه.

الأب: أحسنت، أحسنت - يا **أحمد**- على هذا التعريف الدقيق، والرائع.

فأنا – مثلاً- أريد أنْ يُيَسِّر الله تعالى لي أمرًا ما كالذهاب لحج بيته الحرام، وزيارة قبر المصطفى (صلى الله عليه وآله)، فأجعل بيني وبين الله تعالى وسيلة ليحقق لي ما أريد كَأَنْ أتوسّل إليه بجاه القرآن العظيم كما نفعل ذلك في ليلة القدر، أو أتوسّل إليه بمقام رسوله الأعظم (صلى الله عليه وآله)، أو أحد الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، وهذا هو عين ما نفعله في حياتنا في كثير من الأحيان.

أحمد: قلتَ - يا أبي-: إنّ للتوسل أنواعًا عديدة، فما هي أنواع التوسّل المعروفة في كتبنا، ومصادرنا؟

الأب: إنّ مِن أهم أنواع التوسل هو التوسّل بأسماء الله تعالى، وصفاته كما تشير إليه الآية الشريفة:

(وَلِلّٰهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)(١٠)، وأنت تعلم بأنّ هذه **(الباء)** الواردة في كلمة **(بها)** هي **(باء)** الاستعانة، أي أنْ ادع الله تعالى مستعينًا، ومتوسلاً بأسمائه، وصفاته.

أحمد: أبي لعلّ هذا الدعاء - الذي كثيرًا ما نقرؤه- هو نفس التوسّل المقصود في الآية الشريفة، وهو قولنا: **(اللهم إنّي أسألك باسمك العظيم الأعظم الأعزّ الأجلّ الأكرم)**(١١).

الأب: نعم، هو بالضبط - كما تقول-، فأنت في الحقيقة تجعل أسماء الله تعالى، وصفاته وسيلة ليغفر الله تعالى لك، ويستجيب دعاءك، وأنّ التوسّل بأسماء الله تعالى، وصفاته هو التوسّل الأعظم بين الأنواع.

أحمد: هذا رائع، وما هي الأنواع الأخرى للتوسّل؟

الأب: من أنواع التوسل هو التوسّل بالقرآن الكريم، فقد ورد في الروايات استحباب قراءة هذا الدعاء ليلة القدر: (اللهم إنِّي أسألك بكتابك المنزل وما فيه، وفيه اسمك الأكبر، وأسماؤك الحسنى، وما يخاف، ويرجى أنْ تجعلني من عتقائك من النار)(١٢).

ومِن أهم أنواع التوسّل، وأكثرها شيوعًا وممارسة بين المسلمين- خصوصًا أتباع مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)- هو التوسّل بالأنبياء، والأولياء الصالحين، وبالأمور الأخرى المرضيّة له سبحانه، فالتوسّل لون من ألوان رحمة الله تبارك وتعالى، وأفضاله على عباده.

أحمد: نعم - يا أبي-، فإنّ هذه هي النقطة الحسّاسة، والمحوريّة في حديثنا، فأودّ الآن أنْ تذكر لي الأدلة التي تبيِّن بشكل واضح، وقاطع جواز التوسل بالنبيِّ (صلى الله عليه وآله)، أو بالأولياء الصالحين.

---

(١٠) الأعراف:١٨٠.

(١١) مصباح المتهجد ٤١٦، الشيخ الطوسي، الطبعة الأولى١٤١١هـ- ١٩٩١م، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت لبنان.

(١٢) الكافي٢/٦٢٩، الشيخ الكليني، الطبعة الرابعة١٣٦٥ش، دار الكتب الإسلاميّة، طهران- إيران.

(٦)

القرآن الشاهد

إنّ من أعظم النّعم أنْ أنزل الله سبحانه كتابه الكريم تبيانًا للنّاس، وهدىً ورحمة، وجعل فيه تلك التعاليم السامية التي تضيء لهم الدّرب الشائك، وما تلك السور الشريفة إلا مشاعل تستنير بها الأمة إنْ وعت ما تحمله آياتها، ومن هذا المنطلق قال **الأب:** سوف أستدل بأدلة قرآنيّة، وأخرى روائيّة، وثالثة تاريخيّة حتى يتضح لك أنّ عقيدة التوسّل حقيقة إسلاميّة لا يمكن إنكارها.

أما الأدلة القرآنيّة، فهي كثيرة:

منها ما هي بيِّنة، وصريحة في مسألة التوسّل، ومنها ما يمكن للفرد التأمل فيها، وسيجد عقيدة التوسّل داخلة فيها بنحوٍ ما، وسأقتصر على الآيات الصريحة في ذلك، ومنها:

الآية الأولى، وهي ما وردت في سورة يوسف (عليه السلام) القائلة: **(قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ)**(١٣)، فإنّ أخوة يوسف طلبوا من أبيهم الاستغفار لهم على ما عملوه في حقِّ يوسف (عليه السلام) إذ قد جعلوا أباهم وسيلة لهم لغفران ذنوبهم من قبل الله عزّ وجلّ، وجواب النبيّ يعقوب (عليه السلام) على ما طلبوه أشدّ صراحة في التأكيد على قضية التوسّل حيث قال: **(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)**(١٤)، فهذا هو النبيّ يعقوب (عليه السلام) قد صار وسيلة بين أبنائه الخاطئين وبين الله تعالى ليغفر لهم ذنوبهم وخطيئتهم، وذلك لكون يعقوب (عليه السلام) مقرّبًا، ووجيهًا عند الله تعالى.

أحمد: ولكنْ قد يُقال: إنّ التوسل كان جائزًا في شريعة الأنبياء السابقين (عليهم السلام)، فجاء الإسلام ونسخ العمل بالشرائع السابقة، فلم يعد التوسل جائزاً؟

الأب: اعلم - يا بنيّ- بأنّ النسخ، والإلغاء يكون في الأحكام، والعبادات، والمعاملات التي يمكن أنْ ترتبط بالزمان، والمكان لا في العقائد التي تصلح لكلّ زمان، والتوسّل ليس عبادة بل هو عقيدة لا يشمله النسخ، لأنّه يسير على امتداد الزمان.

فعقيدة التوحيد، والمعاد، والجنّة والنار، ووجود الملائكة، وإرسال الرسل، والكتب، والقضاء، والقدر، وسائر العقائد الأخرى كانت موجودة في جميع الشرائع السماويّة منذ آدم (عليه السلام) وحتى نبيّنا الخاتم محمّد (صلى الله عليه وآله)، فلا يمكن أنْ تكون عقيدة من العقائد حقًّا في شريعة، ثم يأتي

---

(١٣) يوسف:٩٧.

(١٤) يوسف:٩٨.

الإسلام ويبطلها.

فهل يُعقل أنْ يكون التوسل أمرًا سائغًا، وممارسًا من قِبل الأنبياء (عليهم السلام) في الشرائع السابقة، ثم يتحوّل إلى نوع من أنواع الشرك بالله تعالى في دين الإسلام؟

أحمد: ألا يمكن أنْ يُدّعى أنّ النسخ يطال العقائد؟

الأب: حتى لو سلّمنا، وقلنا بأنّ العقائد هي الأخرى قابلة للنسخ، والإلغاء لكنّك سترى بنفسك أنّ عقيدة التوسل قد أقرّها الإسلام، ودعا إليها سواء في القرآن الكريم، أو في السيرة النبويّة الشريفة.

أحمد: وهل هناك آية أخرى تؤكد صحة مسألة التوسل؟

الأب: نعم قوله تعالى في سورة النساء: **(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً)**(١٥)، وهذه الآية صريحة في أنّ مَنْ يتوسل بالنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) في مسألة غفران الذنوب، فإنّ الله تعالى يرحمه، ويتوب عليه، وما ذلك إلا لمكانة النبيّ الأعظم (صلى عليه وآله)، وعظمته عند ربِّ العزة والجلالة.

أحمد: في الواقع إنّ هذه الآية عجيبة.

الأب: وما العجب فيها يا بُنيّ؟

أحمد: كأنّي - يا أبي- أفهم منها الحضّ، والترغيب على التوسل بالنبيِّ الكريم (صلى الله عليه وآله)، وأنّه الطريق الأقصر، والأسرع لغفران الذنوب، وشمول الرحمة الإلهيّة، بل وكأنّها توصي أصحاب الذنوب بالتوجّه إلى النبيِّ الأعظم (صلى الله عليه وآله) لكي يستغفر لهم، فيتوب الله تعالى عليهم، فلا يكفي دعاء العبد لوحده إلا إذا انضمّ إليه التوسّل بالنبيِّ الأعظم (صلى الله عليه وآله)، واستغفاره له.

الأب: فتح الله عليك يا عزيزي، فإنّ استغفار النّبيّ (صلى الله عليه وآله) للمذنب وسيلة، وسبب لغفران الله تعالى عليه.

وسوف أختم حديثي حول الاستدلال القرآني بالآيتين الشريفتين اللتين صرحتا بلفظ الوسيلة، إحداهما الآية الشريفة الواقعة في سورة المائدة حيث يقول عزّ وجلّ فيها: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)**(١٦)، وكما ترى لفظ الوسيلة واضحاً في الآية الشريفة.

بل العجيب فيها أنّها تجعل التوسل من صفات المؤمنين المتقين بدليل قوله تعالى: **(اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)**، وعلى هذا فإنَّ عقيدة التوسل نابعة من صميم عقيدة التوحيد والتقوى

---

(١٥) النساء:٦٤.

(١٦) المائدة:٣٥.

لا أنّها بدعة في الدِّين كما يتصوّر البعض من النّاس.

أحمد : الله أكبر!

تصوّر يا أبي كأنِّي لم أقرأ هذه الآية قط!، وأنا الذي ختمت القرآن عدّة مرات.

الأب: والآية الثانية هي الآية السابعة والخمسون من سورة الإسراء حيث يقول جلّ شأنه: **(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً)**(١٧).

أحمد: آمنت بالله صدق الله العليّ العظيم.

الأب: لقد أخبرتك فيما سبق بأنّني سأقتصر على ذكر الآيات الصريحة، وإلا فإنّ هناك عشرات الآيات يمكن أنْ تستخلص منها جواز التوسل، وسأكتفي بذكر واحدة منها.

تأمل – يا بنيّ- قول الله تعالى على لسان نبي الله عيسى بن مريم (عليهما السلام) حيث يقول في سورة آل عمران: **(وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ)**(١٨).

أحمد: وما دخل الآية فيما نحن فيه؟

الأب: لها كلّ الدخل يا أحمد، أفلا تستخلص من الآية أنّ الناس كانوا يأتون للنبيّ عيسى (عليه السلام) حتى يعالجهم من الأمراض التي كانوا يعانون منها، حتى ورد في بعض الروايات أنّه كان يتوافد عليه المئات كلّ يوم، لأنّهم وجدوا في نبيِّهم الوسيلة لشفاء الله تعالى لهم، بل ووجدوه وسيلة لإحياء موتاهم، ولكن كلّ ذلك بإذن الله تعالى، ومشيئته.

أحمد: أبي، وما المراد بـ**(الأكْمَهَ)** في الآية؟

الأب: (الأكْمَهَ) هو من يُولد أعمى، أي أنّ عينيه لا تريان النور من حين خروجه من بطن أمه.

فهذه الآية من إحدى الآيات التي يمكن أنْ نستنتج منها جواز التوسّل إلى الله تعالى بنبيٍّ، أو وليٍّ من أولياء الله الصالحين.

---

(١٧) الإسراء:٥٧.

(١٨) آل عمران: ٤٩.

(٧)

الأحاديث الناطقة

ممّا يساهم في بيان الحقيقة، ويرفد حركة القرآن الدؤوبة في بلورة وإيضاح الحقائق هي السنّة والأحاديث الشريفة، ومن هنا قال **أحمد:** وماذا عن الأحاديث الشريفة والروايات، فهل هناك ما يشير إلى جواز مسألة التوسل بالأنبياء (عليهم السلام)، والأولياء؟

الأب: ما أكثر الروايات والأحاديث التي تُصرِّح - وبشكل لا غبار عليه- بجواز مسألة التوسّل بالأنبياء (عليهم السلام)، والأولياء الصالحين، بل واستحبابها، حتى قيل: إنّ مَن لم يقتنع بالآيات القرآنيّة – على الرغم من وضوحها في عقيدة التوسل –، فلابدّ أنْ يقتنع بالأحاديث الشريفة.

أحمد: هلاّ ذكرت لي - يا أبي- بعضًا من تلك الأحاديث التي تدل على جواز التوسّل بالأنبياء (عليهم السلام)، والأولياء.

الأب: انظر إلى هذه الرواية العجيبة، فلقد ذكر المجلسيُّ في بحار الأنوار: **(روى الحارث بن المغيرة، قال: سمعت أبا عبدالله الصادق** (عليه السلام) **يقول: إيّاكم إذا أراد أنْ يسأل أحدكم ربَّه شيئاً من حوائج الدنيا حتى يبدأ بالثناء على الله عزّ وجل، والمدحة له، والصلاة على النبيِّ** (صلى الله عليه وآله)**، ثم يسأل حوائجه)**(١٩).

فالإمام الصادق (عليه السلام) يُحذِّر من الطلب من الله تعالى لقضاء الحاجة من دون البدء بحمده تعالى، والصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وآله).

أحمد: وماذا يعني ذلك؟

الأب: هذا يعني أنّك أيّها السائل قد جعلت الحمد، والصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسيلة ليقضي الله تعالى بها حاجتك.

وأعطيك رواية ثانية: فـ(عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: قال جابر بن عبدالله الأنصاري: قلت لرسول الله (صلى الله عليه وآله) : ما تقول في عليّ بن أبي طالب؟

فقال: ذلك نفسي.

فما تقول في الحسن، والحسين؟

قال: هما روحي، وفاطمة أمّهما ابنتي يسوؤني ما ساءها، ويسرّني ما سرّها، أشهد الله أنّي حرب لمن حاربهم، سلم لمن سالمهم، يا جابر: إذا أردت أنْ تدعو الله، فيستجيب لك فادعه بأسمائهم، فإنّها أحبّ الأسماء إلى الله عز وجل)(٢٠).

أحمد: صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين.

---

(١٩) بحار الأنوار٩٠/٣١٤، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان.

(٢٠)بحار الأنوار٩١/٢١، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان.

ولكنّ يا أبي: هل جابر بن عبدالله الأنصاري هو نفسه الصحابيّ الجليل؟

الأب: نعم هو نفسه، فقد عمّر إلى زمن الإمام الباقر (عليه السلام)، وأظن أنّه آخر الصحابة رحيلاً عن دار الدنيا.

ويروى في دعاء ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان: **(اللّهم .... بحقّ محمد وآل محمد عليك، وبحقّك العظيم عليهم أنْ تصلي عليهم كما أنت أهله، وأن تصلي على نبيِّك وآل نبيِّك، وأنْ تعطيني أفضل ما أعطيت السائلين من عبادك الماضين من المؤمنين، وأفضل ما تعطي الباقين من المؤمنين)**(٢١)، وحقّ محمد وآل محمد على الله سبحانه هو منزل الكرامة التي جعلها لهم لصدق عبوديتهم وطاعتهم تفضلا منه وتكرّمًا.

وقال الإمام الحسين (عليه السلام) في دعاء عرفة: **(اللّهم إنّا نتوجه إليك في هذه العشيّة التي شرّفتها، وعظّمتها – بمحمد نبيِّك، ورسولك، وخيرتك، وأمينك على وحيك)**(٢٢).

وقال الإمام زين العابدين (عليه السلام) في دعائه بمناسبة حلول شهر رمضان: **(اللّهم إنِّي أسألك بحقِّ هذا الشهر، وبحقِّ من تَعَبّدَ فيه من ابتدائه إلى وقت فنائه من ملك قرّبته، أو نبيٍّ أرسلته، أو عبد صالح اختصصته ....)**(٢٣).

وروى داود الرقي قال: **(إنّي كنت أسمع أبا عبد الله** (عليه السلام) **أكثر ما يلحّ في الدعاء على الله بحقِّ الخمسة يعني رسول الله، وأمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين** (عليهم السلام)(٢٤).

وعن سماعة قال: (قال لي أبو الحسن (عليه السلام) إذا كان لك ياسماعة إلى الله حاجة، فقل: **(اللّهم إنّي أسالك بحق محمدٍ، وعليٍّ فإن لهما عندك شأن، وقدر من القدر، وبحق ذلك أنْ تصلي على محمد وآل محمد، وأنْ تفعل بي كذا، وكذا)**(٢٥).

انظر – يا بنيّ– إلى مثل ذلك، فإنّه ديدن أهل البيت (عليهم السلام)، فما من دعاء، ولا مناجاة إلا وابتدأوه، أو أنهَوه بالتوسل بمحمد وآل محمد، ليقضي الله تعالى حاجتهم.

وبما أنّهم خلفاء الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، وأوصياؤه، وهم المعصومون عن كلّ خطيئة، فما من عمل يقومون به إلا وقد ورثوه عن جدِّهم المصطفى (صلى الله عليه وآله)، فهم عِدْل القرآن، والثقل الآخر كما جاء في حديث الثقلين المتواتر عن النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله): **(إنّي تارك فيكم الثقلين ما إنْ تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله، وعترتي أهل بيتي)**(٢٦)، فإنّنا مأمورون بالتمسُّك بهم، والسير على سنّتهم.

---

(٢١) بحار الأنوار٩٥/١٦٤، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية١٤٠٤هـ– ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت– لبنان.

(٢٢) بحار الأنوار٩٥/٢٢٣، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية١٤٠٤هـ– ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت– لبنان.

(٢٣) مصباح المتهجد ٦٠٩، الشيخ الطوسي، الطبعة الأولى١٤١١هـ– ١٩٩١م، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت– لبنان.

(٢٤) وسائل الشيعة٧/٩٧، الحر العاملي، الطبعة الثانية١٤١٤هـ، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم المقدسة– إيران.

(٢٥) عدة الداعي٥٢، ابن فهد الحلي، مكتبة وجداني، قم– إيران . الكافي٢/٥٦٢، الشيخ الكليني، الطبعة الخامسة١٣٦٣ش، دار الكتب الإسلامية، طهران– إيران.

(٢٦) بحار الأنوار٢/١٠٠، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية١٤٠٤هـ– ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت– لبنان.

(٨)

التوسل عقيدة إسلاميّة

من الثابت الذي لا جدال فيه أنّ التوسل نعمة من تلك الآلاء التي جعلها الله سبحانه لعباده طريقًا إليه، إلا أنّ اختلاف منابع العلم، والرؤى والآراء كفيل بأنْ يضبّب، ويغبّش الرؤية الناصعة، فسأل **أحمد:** ولكن - يا أبي- يبدو أنّ عقيدة التوسل مختصّة بمذهب أهل البيت (عليهم السلام) دون غيره من مذاهب المسلمين، بدليل أنّ كلّ الأحاديث التي ذكرتها هي من مصادر الشيعة.

الأب: كلا - يا بنيّ-، فإنّ هذه النظرة بعيدة عن الصحة تمامًا، فهل تعلم أنّ المذاهب الإسلاميّة الأخرى تروي أحاديث في التوسل تعادل نسبة ما يرويه الشيعة في كتبهم إنّ لم نقل أكثر منهم!!

ولسوف أذكر لك بعض تلك الروايات الواردة في كتب المذاهب الإسلاميّة الأخرى، لترى بنفسك أنّ عقيدة التوسل لها أساس إسلاميٌّ راسخ مُثْبَت في كتب جميع المذاهب الإسلاميّة وليس مذهب أهل البيت (عليهم السلام) فحسب.

أحمد: وأنا على أتمّ الاستعداد لسماعها.

الأب: إذن تفضل، فالرواية الأولى: رواية توسل الضرير بنبيّ الرحمة (صلى الله عليه وآله)، فقد روى الترمذي(٢٧) في صحيحه الحديث رقم ٣٥٧٨، والإمام أحمد في مسنده(٢٨) في الجزء الرابع ص ١٣٨، وابن ماجة في سننه الجزء الأول ص ٤٤١، عن عثمان بن حنيف أنّه قال: إنّ رجلاً ضريرًا أتى النبيّ، فقال: ادع الله أنْ يعافيني.

فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله): إنْ شئت دعوتَ، وإنْ شئت صبرت، وهو خير.

قال: فادعه، قال: فأمره أنْ يتوضأ فيحسن وضوءه، ويصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: **(اللّهم إنّي أسألك، وأتوجه إليك بنبيِّك محمد نبيّ الرحمة، يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربِّي في حاجتي لتُقضى، اللّهم فشفِّعه فيّ)**.

قال ابن حنيف: **(فَوَ الله ما تفرّقنا، وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأنْ لم يكن به ضرّ)**.

هل ترى - يا أحمد- كيف اتخذ الضريرُ رسولَ الله (صلى الله عليه وآله) وسيلة إلى الله تعالى ليقضي حاجته؟

وهل هناك عبارة أوضح من عبارة الرواية في جواز التوسل بالنبيِّ (صلى الله عليه وآله)؟

أحمد: يا الله!

---

(٢٧)صحيح الترمذي٥/٢٢٩، الترمذي، سنة الطبع ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، دار الفكر للطباعة والفكر والتوزيع، بيروت- لبنان.

(٢٨) مسند أحمد٤/١٣٨، الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت- لبنان.

وكأنّ عبارات الرواية هي نفسها عبارات دعاء التوسّل عندنا!

فهل لي برواية أخرى - يا أبي-؟

الأب: نعم.

انظر إلى هذه الرواية الصريحة في جواز التوسل بالأولياء، والمؤمنين، فلقد روى ابن ماجة(٢٩)، وأحمد في مسنده(٣٠)، عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله -(صلى الله عليه وآله)- قال: من خرج من بيته إلى الصلاة، فقال: **(اللّهم إنّي أسألك بحقِّ السائلين عليك، وأسألك بحقّ ممشاي هذا، فإنِّي لم أخرج أشرًا، ولا بطرًا، ولا رياءً، ولا سمعة إنّما خرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك أنْ تعيذني من النار، وأنْ تغفر ذنوبي إنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت إلا أقبل الله عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك)**.

فانظر - يا **أحمد**- معي إلى هذا الحديث جيدًا، وأجبني: ما الشيء الذي أرشدنا إليه النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله) للتوسّل به في الحديث غير حقّ السائلين على الله تعالى؟

أحمد: لقد أرشدنا (صلى الله عليه وآله) للتوسل بممشانا إلى الصلاة.

الأب: أسألك إنْ كان التوسل بالمشى إلى الصلاة جائزًا، أليس من باب أولى جواز التوسل بالأنبياء (عليهم السلام)، والأولياء الذين ذواتهم ذوات خير، وصلاح.

أحمد: بلى، ولكن ما الداعي لذكر هذا القول؟

الأب: لأنّ المنكرين لعقيدة التوسل قالوا: إنّ هذا الحديث يدلّ على جواز التوسل بالأعمال الصالحة لا بالولي الصالح.

أحمد: قول غريب، وأعتقد أنّه لا يستند إلى دليل، خاصة بعد أنْ وردت النصوص الصريحة في التوسل بالأنبياء (عليهم السلام)، والصالحين.

فهل من رواية أخرى من مصادر جمهور المسلمين في جواز التوسّل؟

الأب: حبّذا أنْ تقرأ معي الرواية التي تتحدث عن مراسيم دفن فاطمة بنت أسد أم الإمام أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام)، والتي تولّى دفنها الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) بنفسه لِما كان لهذه المرأة من فضل، ومكانة عنده (صلى الله عليه وآله)(٣١).

فقد ورد فيها أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) خلع قميصه، فألبسها إيّاه، وبعد أنْ حفر قبرها دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فاضطجع فيه، وقال: **(الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر**

---

(٢٩) سنن ابن ماجه١/٢٥٦، محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣٠) مسند أحمد٣/٢١، الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت- لبنان.

(٣١) فاطمة بنت أسد أمّ الإمام عليٍّ (عليه السلام) هي أول امرأة هاجرت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) من مكة إلى المدينة على قدميها، وكانت من أبرّ الناس إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولمّا ماتت دفنت في البقيع، والبقيع هو: مقبرة قرب المسجد النبويّ في المدينة المنوّرة.

ومن أبرز مَن دفن فيها من أئمة أهل البيت هم: الإمام الحسن، والإمام السجاد، والإمام الباقر، والإمام الصادق (عليهم السلام) بالإضافة إلى قبور الكثير من الصحابة.

لأمي فاطمة بنت أسد، ولقّنها حجتها، ووسّع عليها مدخلها بحقّ نبيِّك، والأنبياء الذين من قبلي، فإنّك أرحم الراحمين)، حيث إنّ هذا الحديث قد رواه الطبراني في المعجم الأوسط(٣٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء(٣٣)، والحاكم في مستدركه(٣٤)، وابن عبد البر في الاستيعاب(٣٥)، وغيرهم.

أحمد: لا أصدّق نفسي!

وهل هناك وضوح أشدّ وأجلى من هذه الرواية في التوسل؟

ولكنّ - يا أبي- مع كلّ ما ذكرتَ من الروايات، وغيرها الشيء الكثير الذي لم تذكره، لماذا يرمي البعض مذهب الشيعة بعقيدة التوسّل، ويقولون: إنّها من بدعهم مع أنّ كتب المسلمين مليئة بالأحاديث الصحيحة، والصريحة في جواز التوسّل بالأنبياء (عليهم السلام)، وغيرهم؟

الأب: في الحقيقة إنّ إنكار عقيدة التوسل لم يكن موجودًا عند السلف من المسلمين، وإنّما هو من اجتهادات بعض المتأخرين حيث يقول الشيخ محمود سعيد ممدوح في كتابه **(رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة)** المطبوع في دار الإمام النووي بعمان عام ١٤١٦: ص١٤ (٣٦) وهو التوسل السؤال بالنبيّ، أو الولي، أو بالحق، أو بالجاه، أو الحرمة، أو الذات، وما في معنى ذلك، وهذا النوع لم ير المتبصِّر في أقوال السلف من قال بحرمته، أو أنّه بدعة، أو ضلالة، أو شدّد فيه، وجعله من موضوعات العقائد كما نرى الآن.

لم يقع هذا إلا في القرن السابع، وما بعده!، وقد نُقل عن السلف توسل من هذا القبيل.

ونقل ابن عابدين في حاشية رد المحتار٦/٧١٦: **(عبد العزيز بن عبد السلام قال: وقال السبكي: يحسن التوسل بالنبيّ إلى ربه، ولم ينكره أحد من السلف، أو الخلف إلا ابن تيميّه، فابتدع ما لم يقله عالم قبله)**.

فعقيدة التوسل ليست مختصة بالشيعة، بل هي عقيدة إسلاميّة تؤمن بها مختلف المذاهب الإسلامية.

أحمد: الله يهدي الجميع، ويوحِّد كلمة المسلمين على الهدى.

---

(٣٢) المعجم الأوسط١/٦٧، الطبراني، سنة الطبع ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع.

(٣٣) حلية الأولياء٣/١٢١، أبو نعيم الإصبهاني، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان.

(٣٤) المستدرك١/٥٨٠، الحاكم النيسابوري، دار المعرفة، بيروت- لبنان.

(٣٥) الاستيعاب٤/١٨٩١، ابن عبد البر، الطبعة الأولى١٤١٢هـ، دار الجيل، بيروت- لبنان.

(٣٦) الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

(٩)

من سجلات التاريخ

إنّ تعاضد القرآن والسنّة في كشف وإماطة الستار عن الحقائق المغيّبة عنوة أو غفلة معناه أنّ الرحمة الإلهيّة لا تزال تترى على العباد، وإذا ما انضم إليهما التاريخ، فلسوف يكتسب أولاً شرف الدفاع عن الحقيقة من وحيهما الثّجاج، وسيكون ثانيًا مُسْدِيًا خدمةً للبشريّة في سبيل إنارة طريق ذات الشوكة، ولذا قال **الأب:** فبعد أدلة القرآن، والسنّة ما رأيك - يا بنيّ- أنْ ننتقل إلى الأدلة التاريخيّة لنتجول معًا في بساتين المعرفة، فنقتطف ثمارها الوارفة المختلفة الألوان، والأشكال؟

أحمد: وهو كذلك – يا أبي-، ذلك لأنّ تذوق الثمار المختلفة يدعم الموقف، ويعطي الموضوع أبعاده التي يستحقها.

الأب: حسنًا– يا بنيّ- وسأكتفي بنقل ثلاثة شواهد تاريخيّة تثبت أنّ عقيدة التوسل كانت سيرة قائمة بين المسلمين الأوائل من الصحابة، وغيرهم.

الشاهد الأول: لقد جاء في صحيح البخاري في باب **(صلاة الاستسقاء)** أنّ عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، وقال: اللّهم كنا نتوسل إليك بنبيّنا، فتسقينا، وإنّا نتوسل إليك بعم نبيِّنا، فاسقنا، قال: فيُسقون(٣٧).

أحمد: كنت أعتقد أنّ التوسل كان فقط بالنبيّ (صلى الله عليه وآله)، ولم أكن أتصور بأنّهم كانوا يتوسلون بغير النبيِّ أيضاً!

الأب: وأما الشاهد الثاني، فقد روى يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل عن ابن حمد قال: ناظر أبو جعفر - العبّاسيّ - أمير المؤمنين في مسجد رسول الله –(صلى الله عليه وآله)–، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإنّ الله عزّ وجلّ أدّب قومًا، فقال: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)**(٣٨)، ومدح قومًا، فقال: **(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)**(٣٩)، وذمّ قومًا، فقال: **(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)**(٤٠)، وأنّ حرمته –(صلى الله عليه وآله)– ميتًا كحرمته حيًّا، فاستكان له أبو جعفر، وقال: يا أبا عبدالله: أستقبل القبلة، وأدعو، أم أستقبل رسول الله؟

فقال: ولِمَ تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك، ووسيلة أبيك آدم (عليه السلام) إلى الله تعالى يوم

---

(٣٧)صحيح البخاري٢/١٥، البخاري، سنة الطبع١٤٠١هـ- ١٩٨١م، دار الفكر للطباعة والنشر، طبعت بالأفست عن طبعة دار الطباعة العامرة بإستنبول.

(٣٨) الحجرات:٢.

(٣٩)الحجرات:٣.

(٤٠) الحجرات:٤.

القيامة، بل استقبله، واستشفع به، فيشفعك الله، قال الله تعالى: **(وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً)**(٤١). (٤٢)

أحمد: أبي أليس (مالك) هو نفسه إمام المذهب المالكيّ؟

الأب: نعم - يا بني- هو نفسه.

أحمد: إذا كان إمام المذهب المالكيّ يعلّم كيفيّة التوسل بالنبيِّ (صلى الله عليه وآله)، بل ويرى أنّ التوسل عقيدة، وسلوكًا يمارسه حتى الأنبياء (عليهم السلام)، فلماذا يستنكف البعض من التوسل، ويتبرؤوا منه؟

الأب: إنّ مثل هذه التخلّفات قد تحصل لالتباسات، وشبهات.

وأما الشاهد الثالث: فيروي القسطلاني في (المواهب اللدنيّة بالمنح المحمديّة)(٤٣) عن الحسن البصري قال: وقف حاتم الأصم على قبره (صلى الله عليه وآله)، فقال: يا ربّ إنّا زرنا قبر نبيِّك -(صلى الله عليه وآله)-، فلا تردّنا خائبين، فنودي يا هذا ما أذنا لك في زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك، فارجع أنت، ومَنْ معك من الزوار مغفوراً لكم.

هل رأيت كيف أنّ التابعين كانوا يتوسلون بزيارة قبر الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) ليغفر الله تعالى خطاياهم؟

هذا باختصار الشيء اليسير من الشواهد التاريخيّة التي تبيِّن كيفيّة ممارسة السلف من الصحابة، والتابعين، وعلماء المسلمين للتوسل بذات النبيّ (صلى الله عليه وآله)، وبالأولياء الصالحين.

أحمد: لا أدري - يا أبي- كيف أشكرك، فلقد أزحت عني كابوس الوسواس من ذهني، وصدري.

❖ ❖ ❖ ❖

بعد هذا السيل من الاستدلال بالقرآن، والحديث، والتاريخ بات أحمد على يقين من أنّ عقيدة التوسل من أهم، وأعظم العقائد الإسلاميّة الأصيلة التي كانت سيرة الأنبياء، والأئمة (عليهم السلام)، والصحابة، ومَن جاء بعدهم من التابعين، والعلماء قائمة على العمل بها، ولكن بقيت في ذهنه بعض الإشكالات، والتساؤلات حول التوسل، فتقلّب على سريره يحسب الساعات والدقائق ليخرج الفجر عليه سريعًا، ليأتي أباه كي يدحض ما قد بقي في ذهنه من شكوك، وتساؤلات إلا أنّ سلطان النوم كان قويًّا، فانتظر بإرادة صلبة أذان الفجر الذي لم يبقَ عليه سوى دقائق، وما أنْ حان موعد الصلاة حتى وقف على مصلاه مؤدّيًا صلاته، وما أنْ فرغ منها حتى داعب جفنيه النوم فاستسلم له، فأخذه إلى حيث الراحة، وغطّ في سبات عميق.

---

(٤١) النساء:٦٤.

(٤٢) إمتاع الأسماع١٤/٦١٧، المقريزي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، تحقيق وتعليق: محمد عبد الحميد النميسي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

(٤٣) المواهب اللدنيّة بالمنح المحمديّة٣/٤١٢، الشيخ أحمد بن محمد القسطلاني، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، شرحه وعلّق عليه: مأمون بن محي الدين الجنّان، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان.

(١٠)

على ضفاف التوسُّل

اجتمعت العائلة على رأي أنْ تقضي يومًا جديدًا في أحد البساتين المستأجرة التي عادة ما ترتادها العوائل في مثل أشهر الصيف القائض، وبالفعل قاموا بحجز أحد البساتين وذلك من أجل الاستجمام، وكسر رتابة الأسبوع حيث المتعة، وتبادل وجهات النظر في جوٍّ طلق لا تؤسره الجدران، وما أنْ وصلوا ذلك البستان الذي تصطف الحشائش الخضراء على جانبي طريقه كأنّها تحيي مرتادي البستان وإذا بالحاج يوسف يختلس نظرة جهة ابنه وإذا به يجده ساهم الفكر، شارد النظرات، فتركه حتى استقرّوا تحت ظلال تلك النخيل الباسقات، وغادرت كلّ من **أم أحمد وفاطمة** لإعداد وجبات رحلتهم، فبادر ابنه بسؤال يقطع عليه حبل تفكيره المترامي الأطراف قائلاً: ما بالك يا **أحمد** شارد الفكر؟

فقال **أحمد:** لا شيء سوى أنّ ما أخبرتني به من حقائق قد جرّني إلى تداعي، واستنطاق بعض التساؤلات التي أرّقتني.

الأب: هل لي بمعرفتها حتى أشاركك حلّها؟

أحمد: أبي لا زالت هناك بعض الإشكالات، والشبهات عالقة في ذهني حول عقيدة التوسّل، فأودّ أنْ أطرحها لتجيب عليها، وإنْ كنت مقتنعاً تماماً بشرعيّة هذه العقيدة، وإسلاميّتها بعد أنْ أزحت عنّي ما قد لوّث ذهني من ذلك الكتيّب.

الأب: تفضل - يا أحمد - هكذا أريدك في مسائل العقيدة بأنْ لا تتقبّل أيّ فكرة، أو نظريّة إلا بعد الاقتناع التّام بها، وهذا لا يتمّ إلا بالردّ العلميّ القاطع على أيّ إشكال يحوم حول الفكرة، أو العقيدة.

فعليك بالسؤال دائماً عن عقيدتك، ولكن إيّاك إيّاك وتعصب الجهلاء، فما إنْ تجد الدليل والبرهان المقنعَين، فعليك بالتسليم له فورًا وإنْ كان الدليل مخالفًا لما تهواه، فالحقّ أحقّ أنْ يُتّبَع.

والآن ما هي إشكالاتك؟

أحمد: الإشكال الأول: ألا تعتقد - يا أبي- بأنّ عقيدة التوسل تخالف عقيدة التوحيد، فإنْ كان قضاء الحاجات بيد الله سبحانه وتعالى، فإنّ طلبك من النبيّ، أو الإمام، أو الولي الصالح شرك بالله تعالى، والحقّ تعالى يقول في سورة الجن: **(فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)**(٤٤)، ويقول في سورة الحج: **(يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)**(٤٥)، ويقول

(٤٤) الجن: ١٨.

(٤٥) الحج:١٢.

عزّ وجلّ في سورة الأحقاف: **(مَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)**(٤٦)، وغيرها من الآيات العديدة التي تتحدث عن النهي عن الدعاء لغير الله تعالى؟

الأب: سأجيبك عن هذا الإشكال بعدّة أجوبة.

أحمد: تفضل.

الأب: أولاً: إذا كان التوسل شركًا بالله تعالى – كما تقول –، فهذا يعني أنّ الأنبياء (عليهم السلام) من المشركين – والعياذ بالله–.

فقال **أحمد** مستغربًا مندهشًا: ماذا تقول يا أبي؟!

الأب: ألا تتذكر الآيات التي تحدثت عن توسل أبناء النبيّ يعقوب (عليه السلام) بأبيهم ليستغفر لهم الله تعالى؟

وكيف قَبِل يعقوب (عليه السلام) دعوتهم، ووعدهم بالاستغفار؟

فإن كان ما طلبوه شركًا، فيجب على نبي الله يعقوب (عليه السلام) وهو النبيّ المعصوم أنْ ينهاهم عن هذا التوسل، ويعلِّمهم بأنّ الدعاء لا يكون إلا لله مباشرة دون أيّ واسطة، ولكنّه على العكس من ذلك تمامًا، فقد وعدهم بالاستغفار لهم.

ثم هل نسيت الروايات التي قرأناها معًا حول جواز التوسل، وكيف كان النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله) يعلِّم أصحابه طريقة التوسل به في دعائهم، وقضاء حاجاتهم؟

فهل يُعقل أنْ يكون حامل راية التوحيد – أعني النبيّ (صلى الله عليه وآله)– داعيًا إلى الشرك بالله تعالى؟

ثانيًا: إنْ كان التوسل شركاً بالله تعالى، فهذا يعني أنّ أول من دعا إلى الشرك هو الله سبحانه – تعالى عن ذلك علّوًا كبيرًا– .

أحمد: أستغفر الله، وكيف يكون ذلك؟!

الأب: وهل نسيت قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ)**(٤٧)، أليس هذا أمرًا واضحًا للمؤمنين باتخاذ الوسيلة إلى الله تعالى؟

فهل يُعقل أنْ يأمر الله تعالى المؤمنين باتخاذ الوسيلة إليه، ويكون هذا التوسل شركًا به تعالى؟

لا أعتقد أنّ هناك عاقلاً يقول بهذا الكلام!

وثالثًا: لو كان التوسل شركًا بالله تعالى، فكيف لا يدرك الصحابة، والتابعون، وفقهاء الأمة الإسلاميّة الأوائل هذا الأمر؟، وهم الحريصون على الابتعاد عن كلّ ما قد يُشَمُّ منه رائحة الشرك قولاً، أو فعلاً؟

---

(٤٦) الأحقاف: ٥.

(٤٧) المائدة:٣٥.

بل وجدنا بالأدلة الروائيّة، والتاريخيّة أنّ سيرتهم قائمة على التوسل بالنبيِّ (صلى الله عليه وآله)، والأولياء الصالحين.

ورابعًا: قلتَ: إنّ التوسل قد يخالف عقيدة التوحيد، لأنّه نوع من الشرك، فأسألك: ما هو الشرك؟

أحمد: هو أنْ تؤمن بوجود خالق آخر مع الله سبحانه وتعالى في هذا العالم.

الأب: وكذلك ماذا؟

أحمد: أنْ تؤمن بأنّ هناك من يدبِّر الأمر غيره تعالى.

الأب: أسألك - يا أحمد- بالله عليك: هل هناك مسلم يؤمن بوجود إله، وخالق غير الله تعالى؟ أو هل هناك من المسلمين منْ يعتقد بأنّ أحدًا غير الله تعالى له القدرة، والمشيئة على تدبير الأمور مستقلاً عنه تعالى؟

أحمد: لا، لا.

الأب: إذًا كيف يكون المتوسِّل مُشركًا بالله وهو يؤمن بأنْ لا إله، ولا خالق، ولا ربّ، ولا مدبّر في هذا الوجود غير الله سبحانه وتعالى، ويعتقد بأنّ مَنْ يتوسّل به – سواء كان نبيًّا، أو إمامًا، أو وليًّا من الأولياء- هو عبدٌ لا يملك لنفسه نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا؟

بنيّ: إنّما يتوسل المتوسلون بهؤلاء الصالحين لمكانتهم، ومنزلتهم عند الله تعالى، ولأنّ الله تعالى نفسه قد أذِن لهم، وأمرهم باتخاذ هؤلاء الأولياء وسيلة إليه، ولهذا نقرأ في دعاء التوسّل، ونكرِّر هذه الجملة مع كلّ معصوم (عليه السلام): **(يا وجيهًا عند الله اشفع لنا عند الله)**.

وكذلك نقرأ في خاتمة دعاء التوسل مخاطبين الأئمة المعصومين (عليهم السلام): **(فإنّكم وسيلتي إلى الله، وبحبّكم، وبقربكم أرجو نجاة من الله)**.

خامسًا، وأخيرًا: إنّ ما ذكرته من الآيات القرآنيّة، وما شاكلها لا علاقة لها بعقيدة التوسّل القائمة على التوحيد، إذ أنّ الآيات المذكورة ورد فيها عبارة: **(من دون الله)**، وعبارة: **(مع الله)** وكلتاهما من عبارات الشرك والكفر، أما المؤمن المتوسِّل فلا يدعو من دون الله، ولا يدعو مع الله، بل يدعو الله بالنبيّ، والإمام، والوليّ، وكم هو فرق بين التعبيرين!

أحمد: جزاك الله خيرًا - يا أبي-، فكم هي كلمة رائعة: **(إنّ المتوسِّل يدعو الله تعالى بالنبيّ، والإمام لا أنّه يدعو مع الله، أو من دون الله)**.

لقد اختصرتَ عقيدة التوسل في هذه العبارة الموجزة.

بعدها أطلق عنان تفكيره، وسبح في تأملاته، فتركه والده حتى يرجع إلى ما يصبو إلى فهمه، وتحليله، ومعرفته، تاركًا الخيار له لاستنطاق الحقيقة، والتنقيب عنها حتى تستقر في عقله ووجدانه، وترسو به سفينة الحقّ على شاطئ أمان العقيدة.

(١١)

محادثة أرواح الموتى

دارت الأفكار في ذهن **أحمد** كدوران الرحى، وعيناه تسبح في تلك المناظر الخلابة التي تحيطهم بجمالها تلك الأشجار والحشائش الخضراء المترامية الأطراف على جوانب ذلك البستان، وشدّه منظر تلك النخيلات الباسقة الشامخة التي تضفي جمالا، وعراقة، وأصالة إلى مثل هذا البلد الطيّب الذي كان يُسمى ببلد المليون نخلة حتى جارت عليها يد الإعمار، فصيّرتها كما الذكرى، ولولا ارتباط أهل البحرين الغالية بها لكانت يبابًا.

ثم عاد من جولة ذهنه إلى حيث كان مع أبيه، وإذا بأبيه ينظر إليه بعين ملؤها الأمل والتفاؤل، فتنفّس أحمد تنفسًا عميقًا، وقال لوالده:

أعتذر عن سرحان، وشرود ذهني.

الأب: لا عليك، فـ**(الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)**(٤٨) ، ولذا فروحي هي الأخرى راحت تهيم في جمال هذا الصنع المتقن لله سبحانه.

فابتسم **أحمد**، وتابع حديثه وإلقاء أسئلته على أبيه:

أما السؤال الثاني الذي أودّ طرحه، فهو ما قد يُقال: إنّ التوسّل جائز فيما إذا كان النبيّ، أو الإمام، أو العبد الصالح حيًّا، أما التوسل بهم بعد الممات، فهذا غير مقبول، لأنّك تنادي من لا حياة له، فلا يسمعك، ولا يستجيب لك.

فكيف تجيب على هذا التساؤل؟

الأب: كنت أتوقّع منك هذا السؤال، وأشكرك لأنّك ذكرته حيث إنّ من أهم أدلة المعارضين لعقيدة التوسل من بعض المذاهب الإسلاميّة هو: أنّ الإنسان الميّت لا حياة له، فإذًا لا شعور ولا إحساس له، فكيف يستجيب إلى توسلك، ومن ثم يدعو الله تعالى لقضاء حاجتك؟

ولهذا لاحظ عندما تريد زيارة النبيّ (صلى الله عليه وآله)، وتقف أمام قبره الشريف للسلام عليه، فإنّهم يقولون لك: إنّ النبيّ ميّت، وإذا أردت أنْ تدعو فادع الله تعالى مباشرة، وهذا الموقف يصوِّره أحد الشعراء قائلاً :

قالوا لقد مات النبيّ ولم يكن بعد الممات إلى التحيّة واعيا

ولكي نتوصّل إلى الرأي الصحيح في المسألة لابدّ وأنْ نثبت أولاً: هل أنّ الميت له إحساس، وشعور في عالم القبر؟، أم أنّ مثل الميّت بعد الرحيل عن دار الدنيا كمثل التراب، والحجر لا حياة له؟

فإذا ثبت لك وجود حياة، وإحساس له في قبره، فهذا يعني أنّه يسمع المتوسِّل به، ويستجيب له.

---

(٤٨) بحار الأنوار٢/٢٦٥، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان.

أحمد: وبالتالي يكون التوسل به جائزًا.

الأب: نعم، فلا فرق حينئذٍ بين التوسل به حيًّا، أو ميِّتًا.

أحمد: وما هي الأدلة على أنّ الميّت له حياة، وإحساس، وسمع، وما إلى غير ذلك؟

الأب: إنّ هناك آيات قرآنيّة عديدة تدل على وجود حياة للميّت منها:

أولاً: اقرأ قوله تعالى في سورة الأعراف على لسان النّبيّ صالح (عليه السلام) حينما خاطب قومه بعد أنْ نزل عليهم العقاب الإلهيّ، وأهلكهم، فقال لهم: **(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ)**(٤٩).

فانظر - **يا أحمد**- هذا الخطاب المباشر من النبيّ صالح (عليه السلام) إلى قومه وهم أموات قد أخذتهم الرجفة، فقد ناداهم بقوله: **(يا قوم)**، **(أبلغتكم)**، **(نصحت لكم)**، **(لا تحبون)**، فكلّها خطابات جاءت بضمير المخاطب، فأسألك: إنْ كان الميّت لا شعور، ولا إحساس له، فكيف بنبيّ من أنبياء الله العظام يخاطبهم، ويتحدث معهم مستخدمًا ضمير المخاطب عدّة مرات؟

أحمد: لعلّ الخطاب هنا للموعظة، وتنبيه الأحياء، وليس خطابًا للأموات، وذلك من باب (إيّاك أعني واسمعي يا جارة)؟

الأب: هذا الاحتمال الذي تذكره جميل يا بني، وقد قاله بعض المفسرين، إلا أنّ هناك تفسيرًا آخر غير بعيد يقول: إنّ كلام نبي الله صالح (عليه السلام) قد كان بعد هلاك المتمردين من قومه.

أحمد: وهل يُعقل؟

الأب: ولِمَ لا؟

أحمد: وكيف ذلك؟

الأب: هذا ممّا يحدث كثيرًا من محادثة أرواح الموتى بمثل هذا الكلام ليعتبر الباقون الحاضرون(٥٠).

بل إنّ صالحًا (عليه السلام) قد خاطبهم بعد كونهم جاثمين كما أنّ نبينا -(صلى الله عليه وآله)- خاطب قتلى بدر، فقيل له: تتكلم مع هؤلاء الجيف؟، فقال: ما أنتم بأسمع منهم، لكنّهم لا يقدرون على الجواب(٥١).

وإنّ نفس هذا المضمون قد ورد في خطاب النبيّ شعيب (عليه السلام) لقومه بعد هلاكهم وموتهم، ففي سورة الأعراف يقول تعالى على لسان شعيب: **(تَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ**

---

(٤٩) الأعراف: ٧٨-٧٩.

(٥٠) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل٥/٦٦، العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

(٥١) التفسير الكبير١٣-١٤/١٣٦، الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي، الطبعة الثالثة ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ)(٥٢)، فالكلام هو نفسه ما قُلناه في خطاب النبيّ صالح (عليه السلام) لقومه، فلو لم يكن الهالكون سامعين لخطاب النبيّ شعيب (عليه السلام)، فما معنى خطابه إيّاهم؟

أحمد: ما أروعك - يا أبي- وأنت تستخلص الرأي الصحيح من الآيات، وهل هناك آيات أخرى تدل على وجود حياة للميّت؟

الأب: نعم - يا بني-، انظر إلى قوله تعالى في حقّ حبيب النجّار الذي كان مؤمنًا، ومصدِّقًا للنبيّ عيسى (عليه السلام)، فقد بذل النصح، والإرشاد لقومه حتى يهديهم إلى الصراط المستقيم، ولكنّ قومه آذوه، وعذّبوه حتى قُتل شهيدًا، فأكرمه الله تعالى بالجنّة، ومن هناك كان يخاطب قومه، والخطاب لا يصدر إلا ممّن له شعور، وإحساس حيث قال تعالى في سورة يس: **(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يعلمون بما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)**(٥٣).

ومنها: قوله تعالى في حقّ المذنبين: **(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)**(٥٤).

وأوضح من هذا كلِّه قوله تعالى في حق الشهداء: **(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)**(٥٥)، فالشهداء أحياء عند الله تعالى، والحيّ يسمع ويدرك ما يوجّه إليه من خطاب وتوسّل، ولهذا لا يحتج علينا محتجّ، ليقول: لماذا تتوسلون بالإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، أو بالحسين (عليه السلام)، فنردّ عليهم: إنّ الآية صريحة في أنّ الشهداء أحياء عند الحقّ تعالى.

فإذا كان الشهداء في سبيل الحقّ تعالى أحياء عنده، فما بالك بمَن اختارهم الله تعالى لحمل رسالاته كالأنبياء، والأئمة (عليهم السلام)؟

---

(٥٢) الأعراف:٩٣.

(٥٣) يس:٢٧.

(٥٤) المؤمنون: ٩٩-١٠٠.

(٥٥) آل عمران: ١٦٩.

(١٢)

الحياة الخالدة

للشهيد رسالته في الحياة يكتبها بدمه القاني الذي بذله لإعلاء كلمة الله في الأرض، ومن هنا فمداده يقف شامخًا في وجه الزمن لينحت بكلّ فخر على جبينه آيات الخلود، ومعاني العزة والكرامة.

ومن أجل أنْ يستوضح الولد من أبيه سبب نعت الشهداء في القرآن بالأحياء، فقد قال: ولكن يا أبي هل لي بسؤال، ولربّما سيخرج بنا قليلاً عن إطار ما نحن فيه؟

الأب: تفضل.

أحمد: كيف يكون الشهداء أحياء ونحن لا نراهم يعيشون بين ظهرانينا وبيننا، بل لربّما قد شيّعنا بعضهم إلى مثواه الأخير، ودفناه بأيدينا؟

الأب: إنّ المقصود به هذه الآية هي الحياة البرزخيّة في عالم ما بعد الموت، لا الحياة الجسمانيّة، والماديّة وإنْ لم تختص الحياة البرزخيّة بالشهداء، إذ أنّ للكثير من النّاس حياة برزخيّة أيضًا، ولكن حيث إنّ حياة الشهداء من النمط الرفيع جدًّا وبالنحو المقرون بأنواع النِّعم المعنويّة لذلك خُصُّوا بالذكر، وخصّت حياتهم بالإشارة في مثل هذه الآية دون سواهم، ودون غيرها من الآيات أيضًا.

أحمد مندهشًا: ألهذه الدرجة؟

الأب: بل وأكثر، حيث إنّ حياتهم البرزخيّة محفوفة بالنِّعم، وبالمواهب المعنويّة العظيمة، وكأنّ حياة الآخرين من البرزخيين بما فيها لا تكاد تكون شيئًا يذكر بالنسبة إليهم(٥٦).

أحمد: لنرجع إذًا – بعد أنْ أجليت لي معنى حياة الشهداء- إلى محور حديثنا، فلقد اشتقت أكثر فأكثر إلى انتهال نمير وزلال الحقيقة، فهل هناك روايات تشير إلى ذلك؟

الأب: نعم، فالروايات التي تتناول مثل هذه الحقيقة حدِّث ولا حرج، فقد روى البيهقي في سننه في جزء **(حياة الانبياء)**: **(الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون)**(٥٧).

وإليك هذه الرواية المتفق عليها بين المذاهب الإسلاميّة، فقد رُوي عن النبيّ (صلى الله عليه وآله) أنّه وقف

---

(٥٦) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل٢/٤٦٥-٤٦٦، العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، الطبعة الأولى١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

(٥٧) - حياة الأنبياء بعد وفاتهم١/٧٠-٧٢، البيهقي، طبع: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى١٤١٤هـ، المدينة المنورة.

- مجمع الزوائد٨/٢١١، الهيثمي، سنة الطبع١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

- فتح الباري٦/٣٥٢، ابن حجر، الطبعة الثانية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان.

- الجامع الصغير١/٤٧٧، السيوطي، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.

على قليب(٥٨) بدر، وخاطب المشركين الذين قتلوا، وألقيت جثثهم في القليب: **(لقد كنتم جيران سوء لرسول الله، أخرجتموه من منزله، وطردتموه، ثم اجتمعتم عليه، فحاربتموه، فقد وجدت ما وعدني ربِّي حقًّا، فقال له رجل: يا رسول الله ما خطابك لهامٍ قد صديت؟**

فقال (صلى الله عليه وآله): **(والله ما أنت بأسمع منهم، وما بينهم وبين أنْ تأخذهم الملائكة بمقامع من حديد إلا أنْ أعرض بوجهي – هكذا – عنهم)**(٥٩).

ورواية أخرى عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد أنْ انتهت معركة الجمل مرّ على جسد كلّ من **(كعب بن سور، وطلحة بن عبيد الله)**، وكانا ممّن قاتلا عليًّا (عليه السلام) في المعركة، فكلّما مرّ الإمام (عليه السلام) على واحدٍ منهما طلب أنْ يجلسوه، فكان يقول له: **(قد وجدت ما وعدني ربيِّ حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربّك حقّاً؟)**، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟

فقال (عليه السلام): **(يا رجل والله لقد سمعا كلامي كما سمع أهل القليب كلام رسول الله)**(٦٠).

فتفكّر – يا بني–: إنّ الميِّت يسمع، ويدرك كالحيّ، ولا يعني الموت العدم، والفناء.

نعم هو عدم للجسد لا للروح التي هي مصدر الشعور، والإدراك.

وسأُنهي كلامي بدليلين واضحين يدلان على أنّ للميت حياةً، وإدراكًا.

أحمد: تفضل يا أبي، فكلي آذان صاغية إليك.

الأب: الأول: ألا يقول كلّ مسلم في تسليم صلاته: **(السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته)؟**

فهل يعقل أنْ نُؤمر بالسلام على إنسان لا يدرك، ولا يشعر، وقد قال (صلى الله عليه وآله): **(مَن صلى عليّ عند قبري سمعته، مَن صلى عليّ نائيًا – أي عن بعد – بلغته)**(٦١)؟

أحمد: وما الدليل الثاني – يا أبي–؟

الأب: ألا نزور الموتى في المقبرة بهذه العبارات الواردة عن النبيّ (صلى الله عليه وآله): **(السلام على**

---

(٥٨) القليب: البئر قبل أنْ تطوى، ويجمع على قُلب. كتاب العين٥/١٧١، الخليل الفراهيدي، الطبعة الثانية١١٠هـ، مؤسسة دار الهجرة.

(٥٩) بحار الأنوار٦/٢٥٥، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية١٤٠٤هـ– ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت– لبنان.

(٦٠) بحار الأنوار٦/٢٥٥، العلامة المجلسي، الطبعة الثانية١٤٠٤هـ– ١٩٨٣م، مؤسسة الوفاء، بيروت– لبنان. حق اليقين٢/١١٥، السيد عبد الله شبر، الطبعة الأولى، دار الزهراء، بيروت– لبنان.

(٦١) فتح الباري٦/٣٥٢، ابن حجر، الطبعة الثانية، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان.

– شرح سنن النسائي٤/١١٠، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

– الجامع الصغير٢/٦١٨، السيوطي، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ– ١٩٨١م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان.

أهل لا إله إلا الله – إلى أنْ نقول لهم: – كيف وجدتم قول لا إله إلا الله)؟

وفي رواية أخرى: **(السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا وإيّاكم متواعدون غدًا)**(٦٢)؟

فهل يعقل الخطاب لغير السامع الواعي الحيّ؟

مضافاً إلى ذلك، فقد ثبت بالأدلة الفلسفيّة أنّ الموت هو انعدام الجسد لا انعدام الروح، وأنّ الميِّت باقٍ على شعوره، وإحساسه كما كان حيًّا إنْ لم نقل أقوى مما سبق!

وسوف أتركك وهذه الرواية التي تثبت لك توسل الصحابة بالنبيّ (صلى الله عليه وآله) بعد موته.

هل تتذكر رواية عثمان بن حنيف؟

أحمد: تقصد الرواية التي تتحدث عن الضرير الذي أتى النبيّ (صلى الله عليه وآله)، وطلب منه التوسّل لشفائه؟

الأب: أحسنت، أحسنت هي ما أقصد بالضبط، فإنّ الراوي كان هو الصحابيّ الجليل عثمان بن حنيف، فانظر إلى هذا الخبر للصحابي عثمان بن حنيف نفسه: (روى الطبراني في المعجم الكبير الجزء التاسع ص ١٦، وغيره أنّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له، فكان عثمان بن عفان لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف، فشكى ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة، فتوضأ، ثم ائت المسجد، فصل فيه ركعتين، ثم قل: اللّهم إنِّي أسألك، وأتوجه إليك بنبيِّنا محمد (صلى الله عليه وآله) نبيِّ الرحمة، يا محمد إنِّي أتوجه بك إلى ربِّي، فتقضي لي حاجتي، فتذكر حاجتك، ورح إليّ حتى أروح معك، فانطلق الرجل، فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان، فجاء البوّاب حتى أخذ بيده، فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة (٦٣)، فقال: ما حاجتك؟، فذكر حاجته، فقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتى كانت الساعة؟، وقال: ما كانت لك من حاجة، فاذكرها، ثم إنّ الرجل خرج من عنده، فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيرًا ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت إليّ حتى كلّمته فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمته، ولكنّي شهدت رسول الله –(صلى الله عليه وآله)– وأتاه ضرير، فشكى إليه ذهاب بصره، فقال له النبيّ (صلى الله عليه وآله): أفتصبر؟، فقال: يا رسول الله ليس لي قائد، وقد شقّ عليّ، فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله) ائت الميضأة، وتوضأ، ثم صلِّ ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات.

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا، وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرّ قط) (٦٤).

---

(٦٢) سنن النسائي٤/٩٤، النسائي، الطبعة الأولى١٣٤٨ – ١٩٣٠م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت– لبنان.

(٦٣) الطنفسة: هي ما يجعلها الراكب تحته، وتغطي كتف البعير. النهاية في غريب الحديث والأثر٤/٨٣، ابن الأثير، الطبعة الرابعة ١٣٦٤ش، مؤسسة إسماعليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم– إيران.

(٦٤) المعجم الكبير٩/٣١، الطبراني، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ– ١٩٨٥م، دار إحياء التراث العربي.

(١٣)

إشراقة فجر الحقيقة

قد تغيب الحقيقة لظروف تكتنفها، وتحيط بها متكالبة عليها، ولكن لابّد لها أنْ تشرق يومًا ما في الأنفس، والآفاق، فتهوي لها القلوب الباحثة عنها، وتتجذر، بل وتضفي الراحة والطمأنينة في تلك القلوب التي تقاذفتها أمواج الفتن المتلاطمة لتجعلها في مرساها الآمن، ومن هذا المنطلق قال **أحمد** مخاطبًا والده: عندما أرى هذه الأدلة الواضحة كوضوح الشمس على وجود إدراك، وحياة للميِّت أشعر بالخجل على السؤال الذى سألته، لأنّني أجده الآن تافهًا لا قيمة له.

الأب: لا - يا بنيّ- سلْ ما بدا لك، فليس العيب في نوعيّة السؤال، وإنّما العيب كلّ العيب في الإصرار على الرأي الباطل مع وجود الدليل القاطع.

والآن هل من إشكال آخر لأجيب عليه؟

أحمد: نعم - يا أبي-: أليس الله تعالى عليم بذات الصدور، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وهو القائل في كتابه المجيد: **(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)**(٦٥)، وقال في موضع آخر: **(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)**(٦٦)، فإذا كان الطريق إلى الله تعالى مفتوح أمام الجميع لقربه منّا، فلماذا التوسل إذًا؟

فنحن نستطيع أنْ ندعو الله تعالى مباشرة بدون أيّ توسّل، أو واسطة.

الأب: سأجيبك بأجوبة عديدة:

أولاً: هل القول بدعوة الحقّ تعالى مباشرة يلزم حرمة التوسل إليه بالأنبياء، والأولياء؟

أحمد: كيف، وضِّح لي الأمر - يا أبي-؟

الأب: عندما أمرنا الله تعالى أنْ ندعوه، فهل حرّم علينا التوسل إليه بالأنبياء (عليهم السلام)، والأولياء؟

كلا، فلا علاقة بين الأمرين، فأنت أيُّها الإنسان مخيّر إمّا أنْ تدعو الله تعالى مباشرة ليغفر لك ذنوبك، أو تتوسل بالنبيّ (صلى الله عليه وآله)، وأهل بيته (عليهم السلام) إلى الله تعالى ليغفر لك.

فالنتيجة واحدة، وهي: إنّ استجابة الدعاء هي منه تعالى وحده لا شريك له سواء دعوته بشكل مباشر، فقلت: **(اللّهم اغفر لي)**، أو دعوته متوسلاً بأوليائه، فقلت: **(اللّهم إنِّي أسألك بمحمد وآل محمد أنْ تغفر لي)**.

---

(٦٥) البقرة:١٨٦.

(٦٦) غافر:٦٠.

وثانيًا: لو كان الدعاء إليه تعالى بشكل مباشر يعني حرمة التوسل لما جعل الله استغفار النبيّ (صلى الله عليه وآله) سببًا، ووسيلة لقبول توبة العبد، وهذه النقطة أنت الذي استنتجتها عند الحديث عن قوله تعالى: **﴿لَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾**(٦٧).

أما كان ممكنًا أنْ يغفر الله للمذنب بعد أنْ استغفره، فما هو الداعي لضم استغفار الرسول (صلى الله عليه وآله) له ليتوب الله تعالى عليه؟

وثالثًا: ماذا تقول في الآيات، والروايات التي ذكرناها، - والتي لم نذكرها-، إذ ترشدنا جميعها إلى التوسل بالأنبياء، والأولياء لقضاء الحاجات؟

فلو كان التوسل منافيًا لدعوته تعالى مباشرة لما جاز أنْ يعلِّمنا القرآن، والنبيّ التوسل بالوليّ الصالح، ولأمرنا بدعاء الله تعالى من دون أيّ وسيلة .

رابعًا: إنّ دعاءنا بلساننا لا شكّ أنّه أضعف، وأبعد من الإجابة، لأنه متلوِّث بالمعاصي، والآثام، أما الدعاء بلسان النبيّ الكريم، والأولياء المقرّبين، فهو دعاء بلسان طاهر زكيّ محبوب عند الله تعالى حيث يحبُّ الله تعالى أنْ يسمعه، ولا يتوقف عن إجابته، فهل يا ترى الدعاء بلساننا الآثم الملوّث أفضل، أم بلسان النبيِّ الطاهر الزكيّ؟

أحمد: لا، بل بلسان المصطفى، وآله الطيبين الطاهرين.

خامسًا، وهو الأهم: تحدّثنا في بداية النقاش في قضيّة التوسل عن أنّ هذا الوجود قائم على نظام الأسباب، والوسائل.

أحمد: نعم أتذكر ذلك جيدًا.

الأب: وقلنا بأنّ الله تعالى جعل لكلِّ شيء وسيلة، وطريقًا لتحقيقه، فقد جعل الله تعالى النار وسيلة للإحراق – وإنْ كان قادرًا على أنْ يحرق من دون نار -، وجعل الماء وسيلة لرفع العطش – وإنْ كان قادرًا على رفعه بمجرد أنْ يشعر الإنسان بالظمأ – ، وجعل الزرع، والحرث وسيلة للحصول على الثمار – وإنْ كان قادرًا على إيجاد الثمار من دون زرع، ولا حرث، وجعل أخذ الدواء وسيلة لشفاء المريض – وإنْ كان قادرًا على شفائه من دون طبيب، ولا دواء –، ولكن شاءت حكمته تعالى أنْ يكون العالم عالم الأسباب والوسائل، فهل هناك غرابة في أنْ يجعل الله تعالى الدعاء بجاه النبيِّ (صلى الله عليه وآله)، وأهل بيته (عليهم السلام)، والأولياء الصالحين وسيلة لاستجابة دعاء العبد؟

أحمد: الآن أدركتُ لماذا بدأتَ بالحديث عن نظام الأسباب والوسائل، لأنّك تريد القول بأنّ التوسل بالأولياء لقضاء الحاجة هو جزء من نظام الأسباب في هذا العالم، والوجود.

الأب: بارك الله تعالى فيك يا عزيزي، فما يقوم به المتوسِّل هو السير ضمن نظام الوجود والحقيقة،

---

(٦٧) النساء:٦٤.

والمعارض لقضيّة التوسل هو الشاذ عن الوجود وقانونه، ولذا كلّ مَنْ يعارض قضيّة التوسل، ويراها شِركًا بالله تعالى يجب عليه أنْ لا يشرب، ولا يأكل، ولا يتعالج عند الطبيب، ولا يزرع ليحصد الثمار، ولا يعمل ليسترزق له ولعياله، لأنّ كلّ ذلك وسائل يتوسل بها الإنسان للحصول على ما يريد، والتوسل شِرك في فكره ومنطقه، فعليه فقط أنْ يجلس على مصلاه، ويدعو الله تعالى من الصباح إلى الليل ليقضي حاجته.

أحمد: لا، بل حتى الدعاء يجب أنْ لا يدعو به!

الأب: لماذا؟

أحمد: لأنّ الدعاء أيضًا وسيلة من الوسائل، والتوسل شِرك بالله، فما عليه إلا الصمت بحجة أنّ الحقّ تعالى عالم بحاله.

الأب: لقد صرت أستاذًا في عقيدة التوسل يا أحمد.

أحمد: هذا من فضل الله تعالى عليَّ، ومن بركات ما تعلّمته منك يا والدي العزيز.

وهنا جاءت فاطمة مع أمّها بوجبة الغذاء، ولم يشعر أحمد ولا أبوه بمرور الوقت الذي مضى من دون أنْ يشعرا، فانقطع الحديث بينهما.

وبعد صلاة الظهر، والغذاء راحوا جميعًا يتبادلون وجهات النظر في مستجدّات الساحة، وفيما يدور حولهم من أحداث، وتداعيات على كثير من الأصعدة حتى غربت الشمس، فلملموا أمتعة الرحلة وعادوا أدراجهم نحو منزلهم، وعند عتبات بيتهم نزلت فاطمة مع أمِّها بينما انشدّ أحمد إلى المسجد ليبلغ حاجته المعنويّة، ويعيد ما فقده من شحنات روحيّة من خلال تلك الرحاب الطاهرة، فخاطب أباه: أبتاه أحسّ بأنّ شيئًا يشدّني بعنف إلى الجامع.

الأب: حسنًا يا بنيّ، فمَن يودّ أنْ يبقى على خطّ تماس مشرق مع السماء، فلتكن نقطة انطلاقه، ومحور إرادته نحو السمو والرقي فيما يعتقده ويؤمن به هو الجامع، إذ الجامع هو قاعدة الانطلاق، وهو نفسه المحراب الذي يحتضن من ينيب، ويرجع إلى طريق الصواب، ليهديه طريق السعادة، والغد المشرق، ليرفل في رحمة الله.

(١٤)

فلسفة التوسل

انفرجت أسارير أحمد وهو يرى مآذن جامع حيِّهم تتلألأ منها الأنوار الساطعة وهو يقترب مع أبيه نحوه، وأخذه الشوق إلى تلك الساعات التي تحلِّق فيها أرواح الداعين وهم يتلون آناء الليل وأطراف النهار تلك الكلمات الروحانيّة، فيشده الحنين، ويأخذ بمجامع قلبه، فخاطبه أبوه ليجعل له زادًا لمستقبل أيامه: بني لقد بقيت نقطة واحدة لابدّ أنْ نتحدث عنها قبل أنْ تُقام الصلاة ولو بشكل مختصر، وأعتبرها من المحاور الرئيسيّة في عقيدة التوسل، ومن الإجحاف بحقّ الموضوع إذا لم نتحدث عنها.

أحمد: ما هي - يا أبي-؟، فلقد شوّقتني إليها.

الأب: هل تعرف ما هي فلسفة التوسّل؟

فنحن قد تحدثنا عن معنى التوسل، والأدلة العقليّة، والشرعيّة، والتاريخيّة على جوازها، وأجبنا على أهم الإشكالات التي قد ترد على هذه العقيدة، ولكن لم نتحدّث عن العلّة وراء وجود عقيدة التوسل في الإسلام.

وباختصار شديد: لماذا جعل الحقّ تعالى التوسل بأوليائه عقيدة من عقائد الدِّين الإسلامي؟

أحمد: أبي، ألا تعتقد بأنّنا قد أجبنا على هذا السؤال في معرض حديثنا على أنّ هذا الوجود قائم على قانون الأسباب والوسائل، وقلنا بأنّه كما أنّ الأمور الماديّة والطبيعيّة لكي تتحقّق في الوجود لابدّ وأنْ تتوفر وسائلها وأسبابها، فكذلك الأمور المعنويّة كالقرب الإلهيّ، وغفران الذنوب، واستجابة الدعاء، وغيرها لها وسائل، وطرق توصل الإنسان إلى ما يصبو إليه، لأنّ الدِّين الإسلاميّ قائم على الفطرة التي تُمثل بدورها حلقة من حلقات الوجود، فينطبق عليها ما ينطبق على الوجود من قوانين، وأهمها قانون التوسل؟

الأب: صحيح ما تقوله - يا بنيّ-، ولكنْ هناك سبب مهم جدًّا وراء جعل عقيدة التوسل من عقائد الإسلام، وهو أنّ الله- تبارك وتعالى- مصدر الرحمة، بل ذاته الرحمة، وجاعل الوجود قائمًا على الرحمة، فهو القائل في كتابه المجيد: **(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)**(٦٨).

ومن جانب آخر، فهو الودود، واللطيف، والرحيم بعباده جميعًا، وقد وعد عباده بأنّهم سينالهم

---

(٦٨) الأعراف:١٥٦.

رضاه، ويرزقهم مقام القرب منه جلّ شأنه، ولكن بشروط!

أحمد: وما هي تلك الشروط؟

الأب: أنْ يكون العبد مؤمنًا، وطاهرًا من الذنوب، ومخلصًا في عمله، وعقيدته.

أحمد: ولكن هذه الشرائط من الصعب توفّرها في النّاس جميعًا، وإذا كان هناك من توفّرت فيهم ما ذكرت من الشرائط، فنسبتهم قليلة جدًّا.

الأب: أحسنت، وهنا تظهر فلسفة وجود التوسّل.

فالحقّ سبحانه يعلم منذ الأزل أنّ الإنسان مخلوق ضعيف، جاهل، ظلوم لنفسه، له نفس تسوقه إلى المعصية، وتلهيه عن الحقّ جلّ وعلا، ولكنْ لكونه سبحانه وتعالى عين الرحمة، واللطف، والعفو، فقد جعل سنّةً في الوجود أنْ مَن يتوسّل إليه بأنبيائه (عليهم السلام)، وأوليائه الصالحين، فإنّه تعالى سيستجيب دعاءه، ويقضي حاجته كرامةً لمقام النّبيّ، أو الإمام، أو الولي الصالح، وكأنّ التوسّل بأولياء الله الصالحين يُجبر الكسر، والضعف، وعدم استحقاق العبد لاستجابة دعائه، فيجعله أهلاً لقضاء الحاجة ببركة منزلة المتوسّل به من نبيٍّ، أو إمام، أو غيرهما.

أحمد: إنّه ليمكنني أنْ أقول: إنّ التوسل باب من أبواب الرحمة الإلهيّة قد فتحه الله تعالى أمام عباده، لينالوا عفوه، ورضاه كما أنّ التوبة، والشفاعة من أبواب رحمته تعالى قد فتحهما لعباده، لينالوا رضاه، ويدخلوا جنّته.

الأب: بالضبط - يا أحمد- ، ولكن إيّاك أنْ تنسى بأنّ الدخول من أبواب رحمة الله له شرائط أيضًا، فلا تظنّ بأنّ كلّ من طرق باب التوسّل، أو التوبة فُتح له إذ قال تعالى: **(إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً)**(٦٩). وقال تعالى في معرض قبول الشفاعة: **(وَيومَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً)**(٧٠)، فالحقّ سبحانه وتعالى يقبل توبة، وتوسل مَن يستحق القبول، والذي من أهم شرائطه التوحيد بالله تعالى، وإخلاص النيّة، والعمل بالواجبات، وترك المحرّمات.

أحمد: أبي أتدري ماذا تذكرت الآن؟

الأب: ماذا يا بنيّ؟

أحمد: تذكرت الحديث الشريف الذي قلته ونحن على مائدة العشاء تلك الليلة، وهو قول الإمام الصادق (عليه السلام): **(شفاعتنا لا تنال مستخفًا بصلاته)**، ولكن كم هو فرق بين أنْ أقوله وأنا بإيمان راسخ بعقيدة التوسل، وبين أنْ أسمعه وأنا في اضطراب، وريبة منها.

---

(٦٩) النساء: ٤٨.

(٧٠) طه:١٠٩.

وهنا سمعا صوت المؤذِّن ينادي بذاك النداء الأبديّ الخالد الذي ينفذ بعذوبة وسلاسة إلى شغاف القلب، فيأخذ الفؤاد طوعًا إلى رحاب التوحيد، والتصديق بالرسالة، والولاية والإقرار بهم، فرددا معه بصوت واحد: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله.

ثم توجّها للمسجد وعندما شمّرا عن ساعديهما للوضوء التفت **الأب** مبتسِمًا لابنه، وقبل أنْ يفوه بكلمة قرأ أحمد رسالة ابتسامة أبيه، فعقّب قائلاً: إنّها ليلة الأربعاء، أليس كذلك يا أبي؟

فهزّ **الأب** رأسه، وهو يقول: نعم يا بنيّ!

فقال **أحمد**: لا مناص من أنّني ومنذ الليلة سأحيي معكم دعاء التوسّل، ولن أدع سراب الوسواس ينفذ إلى قلبي إزاء عقيدة مبدؤها القرآن، وظلالها السنّة، وثمارها الصحيح من التاريخ.

وتفتّحت أبوابُ السماء

جـــرت إلـــيـــه ودمـــع المـقـلـتـين جـرى ... والخـــوف يـحـفـر في أعـمـاقـهـا صـورا
جـــرت بـكـلّ قـــواهـــا نـحـو فـلـذتـهـا ... تـــدقّ قـلـبًـا بـفـيـض الـهـم مـعـتـصـرا
صاحت صغيري.. فثار الحزن في جسدي ... أعـــوذ بـــالله مـــاذا بـالـصـغـير جـرى
هـرعـتُ عـــدْوًا وإحـسـاسـي يحدّثني ... بـــأنّ خـطـبًـا جـلـيًّـا أيـقـظ الخـطـر
لـزمـتُ أمـــي فـقـالـتْ دعـنـي يـا ولـدي ... أضـــمُّ طـفـلـي وأقـفـو خـلـفـه الأثـــرا
أخـذتـهـا بـين صـدري شـابـكًـا بـيـدي ... وأيـنـمـا عـثرت جـسـمـي لـهـا عـثرا
والـعـين تـنـضـح طـوفـانًـا بـأدمـعـهـا ... والـقـلـب أحـسـبـه الـبـركـانَ مـنـفـجـرا
فـمـا تـكـلّـمـتُ إلا كـــاد يـغـرقـنـي ... شـلال دمـع بمجرى خـدّهـا انـهـمـرا
أمـــاه أمـــاه ردي .. لا جـواب سـوى ... صـمـت يـلـفُّ شـفـاهـا تـقـدح الـشـررا
أمـــاه شـقـي قـتـام الحـــزن واتـخـذي ... درعًـــا مـن الـصـبر فـالـعـقـبى لـمـن صـبرا
أمـــاه هـــذا قـضـاء الله حـلَّ بـنـا ... والخـلـق مـنـقـادة طـوعًـا لـمـا أمـــرا
إن قـــدّر الله أمـــرًا في خـلـيـقـتـه ... فـلـيـس ثـمّـة شـيء يمـنـع الـقـدرا
طـفـقـتُ أفـرغ جـام الـصـبر في دمـهـا ... وأنـعـشُ الـقـلـبَ حـتـى خـلـتـه انجـبـرا
رنـــتْ إليَّ بـلـحـظ الـطـرف تـنـشـدني ... دعـنـي فـديـتـك أقـضـي بـالـبـكـا وطـرا
فـلـن تـقـرَّ عـيـوني دون رؤيـتـه ... ولـــو مـلـكـتُ كـنـوز الأرض والـــدررا
وإن نـسـيـتُ فـلـن أنـســى طـفـولـتـه ... في المـهـد يشدو فـديـتُ المـهـدَ والـصّـغـرا
نـاغـيـتـه فـانـتـشـى قـلـبـي وهِـمْـتُ به ... حـــدّ الخـيـال فـكـان الـنـايَ والـوتـرا
فـإن تـنـفّـس صـبـحـي كـان شـمـس ضـحـىً ... وإن تـلـفّـع لـيـلـي كـــان لي قـمـرا
رضـعـتـه وارتـضـعـت الحـــبَّ مـن فـمـه ... بـرشـفـة عـاد فـيـهـا الـعـشـق مختصرا
خـذني إلـيـه وأكـحـل نـاظـريَّ عـسـى ... تـطـيـبُ نـفـسـي إذا مـا اسـتـلـقـفـتْ خـبـرا
خـذني إلى غـرف المـشـفـى أفـتِّـشـهـا ... لـــن أبـقـيّن بـهـا شـــبرًا ولـــن أذرا
أخـذتـهـا بـعـد إلحـــاح وهـمـهـمـة ... وكـنـتُ في كـل خـطـوي خـائـفًـا حـذرا
هـواجـس تـتـغـشـاني وتـعـصـف بـي ... لـولا المـنـى لـشـكـيـتُ الـضـعـف والخـوَرا
ربّـــاه ســـترك جـنّـبـنـي مجـازفـة ... أعـــودُ مـنـهـا عـلـيـلَ الـقـلـب مـنـكـسـرا

ما حال أمي ومن يُطفي لواعجها ... لو شاهدَته هشيمَ الرأس معتفرا
أخذتها وذرعتُ الأرض في عجلٍ ... أطوي الدروب كومض البرق حين سرى
جئنا الطبيب يُغطي صمتنا وجل ... وكلّ فردٍ رآنا بالأسى شعرا
نادته أمي بسيلٍ من مدامعها ... ما حالُ طفلي فقلبي باللظى استعرا
نشدتك الله قل لي هل قضى ولدي ... أم لا يزال على قيد الحياة تُرى
أجابنا بعدما ابتلت محاجرنا ... من الدموع وفينا أمعنَ النظرا
قفوا هناك سويعات ولا تهنوا ... وسوف نبلغكم إنْ جاوزَ الخطرا
الطفل لا زال في الانعاش محتضرًا ... لديه نزفٌ وعظمُ الصدر قد كُسِرا
هناك ألفيتُ أمي مِنْ توَجّسها ... ثكلى قد افترشت بين الغصون ثرى
وكلّما أنّ مِنْ أوجاعه وقفتْ ... مذهولة تسترِقُّ السمعَ والبصرا
صاحتْ إلهي بصوت ملؤه حرقٌ ... والدمع قد غمَرَ الأحداق ما غمرا
أحسستُ أنّ سماء الله قد فُتحتْ ... وأنّ طودًا أمامي بالأسى انفطرا
بجاه أحمد بالزهراء بضعته ... بحقّ حرمة ذاك الضلع إذا كُسرا
بحيدر قمر الدنيا وفارسها ... ومن ببدر وأحد بأسه ظهرا
ربّاه بالحسن الزاكي ومحنته ... وعصمة الصبر من ظلم عليه جرى
وبالحسين الذي فُتّتْ حشاشته ... بالصدر بالرأس بالنحر الذي نحرا
بردّ فؤادي بلطف أنت سابغه ... وامنن علينا بأمن وادفع الضررا
دقائق وإذا البشرى تُزفّ لنا ... تجاوز الطفل هذا وضعَه الخَطِرا
تبارك الله لا تُحصى سوابغه ... ولا يُوَفّيه حقًّا شكْرُ مَن شكرا
سبحانه صرّف الأخطار فانصرفت ... بلطفه ووقانا الشرّ والغِيَرا
وخصّنا بنبيّ من بني مضرٍ ... وأهل بيتٍ كرام نسلهم طهرا
فما توسل مكروب بحضرتهم ... إلاّ وفرّج عنه الهمّ والكدرا
هناك قبّلت أمي وجْنة ويدًا ... وبعد بثّ التهاني قلتُ معتذرا
أتقبلين بصبرٍ فيض خاطرتي ... ففي الجوانح ممّا لا ترينَ أرى
تساؤلاتٍ وأفكارًا تراودني ... وما وجدتُ دليلا يقرعُ الفِكَرا
أماه عندي سؤال مربكٌ حرجٌ ... على مدارك عقلي طالما خطرا
فقد رصدتُ بعيني موقفًا عجبًا ... وفي إثارته كم كنتُ منتظرا
قالتْ على الرحْبِ سلْني قلتُ معذرة ... أكاد للشرك أحيانًا أرى صورا

فكلّما نزلت بالأهل نازلة ... تُفتّحين فؤادًا بالهدى عَمَرا
وتذكرين الأُلى من آل فاطمة ... بجوف كلّ دعاء طال أم قصُرا
أليس ذلك شركًا حسبما ذكروا ... أنْ نطلبَ العون مَنْ ميتٍ قد اندثرا
والمؤمن الحقُّ لا يدعو بواسطة ... وإنْ دعا يتوخى في الدعا حذرا
كيف التوسُّل بالموتى وقد بليَتْ ... جسومهم هكذا بعض الخصوم يرى
ونحن نعلم أنَّ الموت فرّقهم ... فهل سمعتِ بميتٍ يدفع الضررا
والنّاس مهما تسامى شأنهم وعلا ... فهم عبادٌ ويبقى أصلهم بشرا
ردّى عليّ بصدق هل توسلكِ ... بأحمد وبنيه رتّبتْ أثرا؟
قالت أراك ببحر الشكّ مضطربًا ... كأن تيّاره في معصميك سرى
أعن مكانة أهل البيت تسألني ... وأنت كلّ صباح تقرأ السوَرا
أئمة في سبيل الله قد قتلوا ... واحرزوا في ذرى العلياء أي ذرى
من كان يحسبهم موتى فقد علقتْ ... به الغشاوة أو قلْ ربّما كفرا
هم عند ربّك أحياء ويرزقهم ... من فضله وهو في قرآنه ذكرا
إن كنتَ تنكر عن جهلٍ مكارمهم ... أو مسّكَ الزيغ مَنْ مستهترٍ سخِرا
سل (إنّما) وسل (التطهير) إذ نطقتْ ... و (هل أتى) وسل (القربى) تنل ظفرا
أو عج على كتب التفسير مغترفًا ... من هديها ما استطابتْ نفسك السّيرا
فبين كلّ حديث فيض منقبةٍ ... تُنمى إليهم ومنها نستقي عِبَرا
همْ صفوة الله هم أبواب رحمته ... ومن تقرّب منهم ذنبه غُفِرا
همْ باب حطّة هم سرُّ الولاية همْ ... زاد المسافر إنْ يومًا نوى السفرا
همُ الخلاصُ لمن يرجو الخلاص غدًا ... وهمْ صراطٌ له بالحشر إنْ عبَرا
هم النجاة فمنْ والاهمُ قُبلتْ ... أعماله والذي عاداهم خسِرا
ولن يَلمَّ بقسط من فواضلهم ... إلاّ امرؤًا لثنايا غورهم سبَرا

بقلم الأستاذ: حسن حبيل